مختارات قصصية

لكاتبات صينيات معاصرات

ترجمة وتقديم

حسانين فهمى حسين

المركز القومى للترجمة



2282

سلسلة الإبداع القصصي



يجمع هذا الكتاب بين دفتيه الترجمة العربية لمختارات قصصية لأربع كاتبات من رائدت الأدب النسوى فى الصين المعاصرة، حيث كان الدافع وراء هذه الخلطة السردية تقديم نصوص قصصية لكاتبات من أجيال مختلفة، حتى يتسنى للقارئ الكريم الاستمتاع بأصوات سردية متعددة الاتجاهات والمدارس. واخترنا هذه القصص بعينها من بين الأعمال الكثيرة لهؤلاء الكاتبات، إيماناً منا بأنها من خير الأعمال المعبرة عن كتابات كل كاتبة منهن، وأنها تكشف عن بعض القضايا الكبرى، التى يهتم بها جمهور الكاتبات الصينيات المعاصرات من ظواهر جديدة فرضت نفسها على واقع الحياة الصينية المعاصرة، وعن نقد مباشر للفساد الذى انتشر فى مؤسسات المجتمع الصيني بداية من ثمانينيات القرن العشرين، وعن قضايا كبرى وأمراض اجتماعية، شغلت جمهور المثقفين خلال الثلاثين عاماً الأخيرة، ومنذ بداية ما يعرف "بأدب الفترة الجديدة" فى الصين.

تصميم الغلاف: رحاب حسن

مختارات قصصية

لكاتبات صينيات معاصرات

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2282
- مختارات قصصية لكاتبات صينيات معاصرات
- حسانين فهمي حسين
- اللغة: الصينية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:
一生太长了
张洁 著

六月的话题
哦，香雪
铁凝 著

盲人报摊
迟子建 著

北京的金山上
张抗抗 著

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مختارات قصصية

لكاتبات صينيات معاصرات

ترجمة وتقديم

حسانين فهمى حسين



2015

مختارات قصصية لكاتبات صينيات معاصرات/ تأليف نخبة: ترجمة وتقديم: حسانين فهمى حسين. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

٢٠٨ص: ٢٠ سم.

تدمك ٥ ٠١٣٧ ٩٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الصينية.

٢ ـ القصص القصيرة.

أ ـ حسين، حسانين فهمى. (مترجم ومقدم)

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٧٢١/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977- 92 - 0137 - 5

ديوى ٨٩٥،١٢

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تقديم

مقدمة تاريخية موجزة للأدب النسوى فى الصين

من نافلة القول إنه على مر تاريخ الأدب الصينى كانت كتابات المرأة بالمقارنة بما كتبه الرجل قليلة ومتفرقة؛ فلقد سيطرت أفكار المجتمع الإقطاعى القديم على الصين لفترة زمنية طويلة، سُلبت خلالها المرأة الصينية الكثير من حقوقها السياسية والاجتماعية والعائلية والثقافية، وفقدت كذلك حقها بوصفها إنسانة فى ذلك المجتمع الذى توارث جيلا بعد جيل أفكارا ومعتقدات بالية تقف جميعها فى صف الرجل وتعارض ظهور المرأة على الساحات العامة، معتقدة أن المرأة تفقد مبادئها وأخلاقها بكونها موهوبة أو مبدعة. ومنذ ظهور صوت المرأة المبدعة فى كتاب «الأغانى» المعروف فى تاريخ الأدب الصينى القديم، وظهور الموهوبة (يين يونغ yin yong) فى أواسط عصر أسرة تشينغ (١٦١٦ ـ ١٩١١)، بدأ منذ ذلك الحين سماع صوت المرأة الصينية على الساحة الأدبية.

ومنذ بداية القرن العشرين، أصبح أدب المرأة الصينية جزءا مهما من تكوين الأدب الصينى الحديث، ولم يعد كما كان فى الماضى مجرد أصوات قليلة ومتفرقة. ومما لاشك فيه أن ذلك التغيير الذى طرأ على أدب المرأة فى الصين كانت وراءه دوافع مختلفة ساعدته على أن يصبح جزءا مهما من الإبداع الصينى فى جملته، وأن يكون ذا صوت عال ومسموع على الساحة الثقافية آنذاك؛ حيث كان وراء تلك النهضة التى دفعت أدب المرأة الصينية فى مطلع القرن العشرين، دوافع تمثلت فى التغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التى طرأت على المجتمع الصينى منذ بداية القرن العشرين حتى الآن، كما أن تغير نظرة المرأة الصينية إلى نفسها وإلى المجتمع ككل، كان بمثابة دافع كبير ساعدها على أن تتخطى الكثير من العقبات التى أعاقت طريقها إلى التقدم واللحاق بركب النهضة التى تشهدها البلاد فى ذلك الوقت، الأمر الذى بشر بدوره بظهور واضح لإبداعات ثرية للمرأة الصينية منذ مطلع القرن العشرين حتى الآن. وقد اتسمت تلك الإبداعات بسمات مهمة، كان من أهمها تعبير المرأة فى إبداعاتها عن يقظتها وإصرارها على التحرر من أصفاد المجتمع القديم، ذلك المجتمع الذى قهرتها أعرافه وتقاليده البالية لأزمان طويلة، ففى ذلك المجتمع المظلم فقدت المرأة الصينية حقوقها السياسية والعائلية وكرامتها وأصبحت أسيرة لهيمنة الآخر، فاقدة وجودها وقيمتها بوصفها إنسانة فى المجتمع.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ظهرت بعض الرائدات الصينيات الأوائل اللائى تأثرن بالثقافة الغربية وعلا صوتهن بالدعوة إلى التحرر من هيمنة الفكر الإقطاعى التقليدى والدعوة إلى التنوير، فكانت الكاتبة والشاعرة الموهوبة تشيو جين (١٨٧٥ ـ ١٩٠٧ qiu jin) رائدة الشعر الوطنى فى تاريخ أدب المرأة الصينية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والتى تعتبر شخصية تاريخية تخطت العصر القديم إلى العصر الحديث والتحرر من التقاليد البالية، وهى التى وضعت الأساس لأدب المرأة الصينية فى القرن العشرين، وعلى الرغم من أن أشعارها كانت تنتمى كليا إلى الشكل القديم، فتأسيسها لمجلات "اللغة الحديثة" و"المرأة الصينية" ودعوتها إلى المساواة بين الرجل والمرأة فى كل الحقوق، وأفكارها التى كان لها تأثير كبير على الساحة الثقافية الصينية، فقد عبر كل ذلك عن فكر القرن الجديد، كما عبرت إبداعاتها الأدبية وأنشطتها المختلفة عن أنها كانت بجدارة رائدة أدب المرأة الصينية فى القرن العشرين. وقد كان لأشعارها المفعمة بالوعى الوطنى والروح النقدية وروح التمرد والوعى الأنثوى الجديد، كان لها جميعا تأثير كبير على أجيال من الصينيات المتعطشات إلى الحرية والتحرر من قيود المجتمع القديم، وكان لها تأثير واضح على الجيل الأول من الكاتبات الصينيات اللائى ظهرن خلال القرن العشرين. ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الشاعرة الموهوبة تشيو جين هى أول كاتبة فى تاريخ أدب المرأة

الصينية فى القرن العشرين، وأيضا أول كاتبة صينية ربطت كتاباتها بين الديمقراطية والمساواة والحرية وتحرير المرأة.

ومنذ ذلك الحين بدأت المرأة الصينية تخرج من ذلك المجتمع المظلم وتخطو خطى ثابتة نحو طريق التقدم الملىء بالنور والأمل ومناهضة كل ما هو قديم بال، فكانت إبداعات كاتبات جيل "حركة الرابع من مايو الثقافية الجديدة"[1] واللائى عبرت إبداعاتهن عن ثورتهن ضد جميع أفكار المجتمع الإقطاعى البائد ومعتقداته، وسخطهن على ما كانت عليه مكانة المرأة الصينية آنذاك، فظهرت الشاعرة الموهوبة تشين خينغ جه chen heng zhe (١٨٩٠ ـ ١٩٧٦) التى كانت أول من استجاب لنداء حركة الرابع من مايو الثقافية الجديدة عام ١٩١٩، وعبرت عن ذلك فى أشعارها التى كتبتها باللغة الصينية الحديثة التى دعا إليها رواد حركة الرابع من مايو أمثال الكتاب: لوشيون وخو شه ولى دا جاو وتشين دو شيو وغيرهم من رواد الأدب والثقافة الصينية الحديثة. والكاتبة والشاعرة الشهيرة بينغ شين bingxin (١٩٠٠ ـ ١٩٩٩) التى ظهرت على الساحة الأدبية مع اندلاع لهيب حركة الرابع من مايو، وأصبحت واحدة من أهم كاتبات الأدب الحديث فى تلك الفترة.

---

(١) حركة الرابع من مايو الثقافية الجديدة: حركة وطنية قامت فى العاصمة الصينية بكين فى الرابع من مايو عام ١٩١٩، وكانت تهدف إلى مناهضة الإمبريالية والإقطاعية، وتعتبر بداية للثورة الديمقراطية الجديدة فى التاريخ الصينى الحديث، وقد كان لهذه الحركة دور كبير فى مجال الأدب والثقافة. (المترجم).

والتى نجحت فى إبداع عدد من الأعمال القصصية المهمة فى مجال نقد بعض الظواهر والأوضاع غير الجيدة فى المجتمع الصينى والكشف عنها آنذاك، والعمل على دفع عملية الإصلاح فى المجتمع، والتى أطلق عليها "قصص القضايا الاجتماعية". والكاتبة المعروفة لو يين lu yin (١٨٩٨ - ١٩٣٤) التى كانت أعمالها هى وبينغ شين من الأعمال التى وصفت بأنها تنتمى إلى"قصص القضايا الاجتماعية"، والتى تناولت العديد من القضايا الاجتماعية التى شغلت المجتمع الصينى فى ذلك الحين. والكاتبة الثائرة فينغ يوان جيون Feng yuan jun (١٩٠٠ - ١٩٧٤) والتى اهتمت بالمناداة بحرية الزواج والثورة ضد الأعراف والتقاليد الإقطاعية والزواج القسرى. والكاتبة باى وى bai wei (١٨٩٣ - ١٩٨٧) التى قدمت إسهامات كبيرة فى مجال تطور المسرح الصينى الحديث، والكاتبة لينغ شو خوا ling Shu hua (١٩٠٠ - ١٩٩٠) التى اهتمت كتاباتها بوصف العوالم الداخلية لامرأة الطبقة العليا والتعبير عما تجيش به نفوسهن من قلق حول مستقبل المرأة الصينية، حتى إن هناك من يصف قصصها بأنها تنتمى إلى قصص الواقعية النفسية.

وذكر الكاتب الصينى المعروف يو دا فو yu da fu (١٨٩٦ - ١٩٤٥): "إن من أعظم إنجازات حركة الرابع من مايو الثقافية هو اكتشاف"الإنسان الفرد"، فلقد كان الإنسان قبل ذلك

يعيش من أجل الحاكم، ومن أجل الأخلاقيات التى كانت تسيطر عليه، ولكن الإنسان أخيرا عرف كيف يمكنه أن يعيش من أجل ذاته وليس من أجل الآخرين"، وهكذا كانت الدعوة إلى تحرر الذات الإنسانية والاهتمام بقضايا المجتمع الصينى والبحث عن مصير المرأة الصينية والتغنى بالأمومة والطفولة وغيرها من المعانى النبيلة، كانت جميعها من أهم الموضوعات التى تناولتها إبداعات جيل كاتبات حركة الرابع من مايو الثقافية الجديدة.

كما كانت قضية "الحب والزواج" من أهم القضايا التى ركزت عليها إبداعات كاتبات جيل حركة الرابع من مايو الثقافية الجديدة. وكانت أعمال الكاتبة فينغ يوان جيون jun feng yuan (١٩٠٠ ـ ١٩٧٤) من أهم الأعمال التى تناولت هذه القضية، وخاصة أعمالها القصصية "العزلة" و"ما بعد العزلة" و"الرحلة"؛ حيث كتبت قصتها الشهيرة "العزلة" (١٩٢٤) حكاية فتاة صينية وتطلعها إلى حرية الحب والزواج والثورة على التقاليد المتوارثة التى تجبر البطلة وى ناى خوا على الزواج القسرى الذى يفصل بين العاطفة والزواج؛ وحيث قامت أمها بحبسها فى المنزل ومنعتها من الخروج للقاء حبيبها، ثم أجبرتها على الزواج من ابن أحد أثرياء البلدة، فكتبت الفتاة فى عزلتها حكاية القصة فى صورة رسائل إلى حبيبها، راحت تتذكر فيها تلك الأيام التى عاشاها معا ينعمان بحلاوة الحب، ثم مضت تشكو من ظلم الأسرة والمجتمع الذى يقضى على سعادة الإنسان، معبرة أنها ستضحى بكل نفيس وغال

فى سبيل حصولها وبنات جنسها على الحرية من قيود تلك التقاليد الإقطاعية الظالمة.

وتحت تأثير لهيب حركة الرابع من مايـو الثقافية الجديدة عام ١٩١٩ مضى أدب المرأة الصينية يتقدم إلى الأمام؛ محطما الكثير من القيود التى أعاقته لفترة طويلة، حتى كان الجيل الثانى من أجيال المبدعات الصينيات - جيل الثلاثينيات والأربعينيات، والذى كان امتدادا لجيل كاتبات حركة الرابع من مايو الثقافية، وكان أهم ما يميز جيل الثلاثينيات والأربعينيات طغيان الطابع الثورى وروح النضال الوطنى على أعمال كاتبات هذا الجيل؛ حيث عبرت إبداعات الكاتبات الصينيات فى تلك الحقبة التاريخية المهمة من تاريخ الصين فى القرن العشرين، عبرت عن الوعى الاجتماعى والسياسى الذى تنامى عند المرأة الصينية منذ ثلاثينيات القرن العشرين، فيمكن القول بأن التغنى بروح النضال الوطنى والاهتمام الكبير بقضية استقلال الصين كان على رأس الموضوعات التى اهتمت بها كاتبات جيل الثلاثينيات والأربعينيات فى تاريخ أدب المرأة الصينية. فمنذ فشل الثورة الأهلية الكبرى فى الصين عام ١٩٢٧ وحتى اندلاع حرب المقاومة ضد اليابان عام ١٩٣٧، احتدم خلال تلك الحقبة التاريخية لهيب الصراع السياسى والطبقى فى الصين، وعقب فشل الثورة الأهلية الكبرى عام ١٩٢٧، وقعت الطبقة البرجوازية الصينية والجماهير العريضة من أبناء الشعب الصينى فريسة تحت ضغوط حكومة الحزب الوطنى الرجعى، الأمر الذى

أدى إلى احتدام لهيب الصراعات الداخلية فى الصين والسعى إلى الإطاحة بحكومة الحزب الوطنى الرجعية، والوصول إلى حكومة شعبية تقف إلى جوار الطبقة البرجوازية وجماهير الشعب الصينى. وقد انعكس ذلك فى أدب تلك الفترة، حتى كانت الدعوة إلى أدب ثورى، وكان تأسيس رابطة كتاب اليسار الصينين فى شنغهاى عام ١٩٣٠، والتى كان من روادها الكتاب لوشيون lu xun (١٨٨١ ـ ١٩٣٦)، يو دا فو yu da fu (١٨٩٦ ـ ١٩٤٥)، فينغ شويه فينغ feng xue feng (١٩٠٣ـ ١٩٧٦)، قوو مو روو guo mo ruo (١٨٩٢ـ ١٩٧٨)، ماو دون mao dun (١٨٩٦ـ١٩٨١) وغيرهم من رواد الأدب الصينى الحديث.

وكانت بعض رائدات ذلك الجيل مثل: دينغ لين (١٩٠٤ ـ ١٩٨٦) ding ling وقه تشين (١٩٠٧ ـ) ge qin وتساو مينغ (١٩١٣ ـ ٢٠٠٢) cao ming وباى لانغ bai lang ذات صلات وثيقة بأعضاء رابطة كتّاب اليسار الصينين، ومن ثم فقد عبر الكثير من إبداعاتهن عن روح النضال الوطنى والثورة ضد حكومة الحزب الوطنى الرجعية وغيرها من القضايا الكبرى التى تبناها كتّاب اليسار الصينيون، وشهدت إبداعات الأديبة الصينية الشهيرة دينغ لين فى تلك الفترة تحولا كبيرا عما كانت عليه إبان حركة الرابع من مايو الثقافية؛ فلم تعد كتاباتها تهتم بالدعوة إلى الحرية الفردية ومناهضة التقاليد الإقطاعية والتمرد عليها، كما فى عملها الشهير "مذكرات السيدة شا فيى" و"مينغ كِه"، فقد بدأت إبداعاتها تساند الحركة الثورية للعمال والفلاحين وتتبنى قضية النضال

الوطنى، وبدأت إبداعاتها تتحول من الفردية إلى الاشتراكية. ومنذ قصص "ربيع ١٩٣٠ فى شنغهاى (الجزء الأول والثانى)" (١٩٣٠) و"الماء" (١٩٣١)، لم تعد أعمالها تركز على القضايا الخاصة بتحرر المرأة وقضايا صغار المثقفين الرأسماليين، حيث شهدت إبداعاتها تحولا كبيرا فى المضمون الإبداعى، فبدأت تدعو إلى تحرر الذات الأنثوية المرتبط بتحرر الطبقة التى تنتمى إليها وتحرر المجتمع ككل، وبدأت تهتم بقضايا الطبقة الثورية البرجوازية ومعاناتها، كما تعتبر إبداعات الكاتبة الشهيرة شياو خونغ xiao hong (١٩١١ - ١٩٤١) وخاصة روايتها الشهيرة "ساحة الإعدام" من أهم الأعمال التى عبرت عن معاناة الشعب الصينى فى صين ما قبل التحرير.

ومع تأسيس الصين الجديدة عام ١٩٤٩، بدأت فترة السبعة عشر عاما الشهيرة فى تاريخ الأدب الصينى المعاصر (١٩٤٩ - حتى الآن). وتمتد فترة السبعة عشر عاما منذ تأسيس الصين الجديدة عام ١٩٤٩ حتى عشية اندلاع الثورة الثقافية الكبرى عام ١٩٦٦. وكان خطاب الزعيم الصينى ماو تسى تونغ الشهير فى "ندوة الأدب والفن فى يان آن[١]" هو المنهاج العام للإبداعات الفنية والأدبية فى

---

(١) خطاب ندوة الأدب والفن: ويقصد به خطاب الزعيم الصينى ماو تسى تونغ فى ندوة الأدب والفن بمدينة يان أن yan an، فى الثانى والثالث والعشرين من مايو ١٩٤٢، وحيث كان خطاب الزعيم ماو يهدف إلى إيجاد حلول مناسبة للقضايا النظرية والتطبيقية التى كانت تواجه تطور الفنون والآداب فى الصين آنذاك، وقد على أن الآداب والفنون يجب أن تكون موجهة إلى جماهير العمال والفلاحين

جميع أنحاء الصين آنذاك. وظهر خلال تلك الفترة الأدب الموجه للجماهير العريضة من العمال والفلاحين والجنود، ذلك الأدب الذى يتغنى بالحزب الشيوعى المنتصر ومؤسس الصين الجديدة الزعيم ماو تسى تونغ، ويتغنى بتأسيس الاشتراكية وبالإبداعات الأدبية التى تأخذ من تاريخ الصراع الثورى مضمونا رئيسيا لها. وهكذا سيطرت تلك الاتجاهات على إبداعات المرأة الصينية فى تلك الفترة، حتى إنه يمكن القول بأن إبداعات الكاتبات الصينيات فى تلك الفترة التاريخية المهمة من تاريخ الصين الحديثة كانت تركز على التغنى بالحزب الشيوعى المنتصر وأمجاده وبزعيمه الكبير ماو تسى تونغ وبالنضال الوطنى والصراعات الثورية أكثر من اهتمامه بالذات الأنثوية وبقضاياها الخاصة. ومن أهم الكاتبات اللائى برزن على الساحة الأدبية آنذاك رو جه جيوان ru zhi juan (١٩٢٥ ـ ١٩٩٨) وعملها الشهير"زهرة السوسن" وزونغ بو zong pu (١٩٢٨ ـ) وعملها الشهير"البازلا الحمراء" ويانغ موا yang mo (١٩١٤ ـ ١٩٩٥) ورائعتها الشهيرة "أنشودة الشباب"(١٩٥٨)، التى كانت أول رواية ممتازة فى تاريخ الأدب الصينى المعاصر تعبر عن الحركات الطلابية الوطنية تحت قيادة الحزب الشيوعى الصينى؛ حيث غطت"أنشودة الشباب" الفترة التاريخية من ١٩٣١إلى ١٩٣٥ من خلال حادثتى ١٨سبتمبر و٩ ديسمبر الشهيرتين والمسيرة الطلابية لطلاب جامعة بكين تحت قيادة الحزب الشيوعى آنذاك،

وقد جسدت"أنشودة الشباب" بجدارة ما أكده الزعيم الصينى ماو تسى تونغ فى خطابه فى "ندوة الأدب والفن فى يان آن" من أن دور الأدب فى المقام الأول هو خدمة العمال والفلاحين والجنود، وأهمية الالتحام بين مختلف فئات الشعب الصينى من أجل الدفاع عن الوطن، ونالت"أنشودة الشباب" فور صدورها تقديرا كبيرا من الأوساط الأدبية والسياسية آنذاك، حيث قال عنها الناقد والأديب الصينى الكبير ماو دون: "إن أنشودة الشباب عمل فنى ممتاز ذو مغزى تربوى عميق، وإذا أردنا الحكم عليها فلابد من النظر إلى مدى تجسيدها لما أكد عليه الزعيم ماو تسى تونغ فى خطابه فى "ندوة الأدب والفن فى يان آن". فعلى الرغم من أن "أنشودة الشباب" كانت تعبر فى المقام الأول عن إيمان شباب المثقفين الصينيين آنذاك بالمبادئ الثورية للحزب الشيوعى بقيادة ماو تسى تونغ، فإنها تضمنت أيضا التعبير عن البحث عن طريق تحرر المرأة الصينية من أغلال المجتمع القديم الفاسد. غير أن الكاتبة يانغ موا كانت دائما ما تؤكد فى حديثها عن روايتها "أنشودة الشباب" أن الهدف الأول من كتابة الرواية هو أن يصبح شباب المثقفين البرجوازيين الصينيين أبطالا ثوريين اشتراكيين، لذلك لابد وأن يكرسوا كل طاقاتهم لخدمة الثورة الصينية والالتحام بفئات العمال والفلاحين والجنود ومساعدة تلك الفئات من الشعب الصينى فى تغيير أفكارهم ومعتقداتهم القديمة.

ومنذ أواخر سبعينيات القرن العشرين وبالتحديد منذ عام ١٩٧٨ حتى الآن، وهى الفترة التى درج مؤرخو الأدب الصينى على تسميتها بأدب"الفترة الجديدة"، فقد شهد الأدب الصينى تطورا ملحوظا تمثل فى ميلاد أعداد كبيرة من الكتّاب الصينيين وتأثر إبداعاتهم بمختلف المذاهب والتيارات الأدبية والفنية العالمية، فلم تعد الصين كما كانت من قبل دائرة مغلقة على كتّابها، بل انفتح الباب أمام الكتاب الصينيين على مصراعيه، مما أثمر بدوره الكثير من الأعمال الأدبية الرائعة التى نالت تقديرا كبيرا داخل الصين وخارجها، وترجمت الكثير من الأعمال الأدبية الصينية المعاصرة إلى اللغات الأجنبية المختلفة (هذا وإن كان نصيب اللغة العربية من تلك الترجمات قليلا للغاية). وكان لهذا التطور الكبير فى تاريخ الأدب الصينى تأثيره الملحوظ على إبداعات المرأة الصينية المعاصرة، حيث تخطى السرد النسائى مرحلة الارتباط بالقضايا الوطنية الكبرى، بما فيها من ثنائية الإسقاط الشهيرة بين المرأة والوطن، التى كانت - إلى حد كبير - هى القاسم المشترك فى كتابات المرأة الصينية خلال فترة السبعة عشر عاما.

فمنذ أواخر السبعينيات حتى الآن، ظهرت على الساحة الأدبية الصينية أعداد كبيرة من الكاتبات الصينيات اللائى تطرقت إبداعاتهن إلى موضوعات جديدة واستخدمن الأساليب الفنية الحديثة، وأصبح من بينهن رائدات كثيرات كن خير من يمثل تطور

الأدب الصينى فى الفترة الجديدة عقب انتهاء كارثة الثورة الثقافية عام ١٩٧٦. نذكر منهن الكاتبات: جانغ جييه zhang jie (١٩٣٧-)، وشين رونغ Shen rong (١٩٣٦ -)، وجانغ كانغ كانغ zhang kang kang (١٩٥٥ -)، وخـــوا دا huo da (١٩٤٥ -)، و وانغ آن إى wang an yi (١٩٥٤ -)، وتييه نينغ (١٩٥٧ -)، وفانغ فانغ fang fang (١٩٥٥-)، وتشه لى chi li (١٩٥٧-)، وتشه تزه جيان chi zi jian (١٩٦٤ -)، وبى شو مين bi Shu min (١٩٥٢ -)، وتسان شويه can xue (١٩٥٣ -)، وجـــانغ شـــين zhang xin (١٩٥٥ -)، والشاعرة شو تينغ Shu ting (١٩٥٢ -)، وجانغ شين وشين zhang xin xin (١٩٥٣ -)، والكاتبات الشابات لين باى lin bai (١٩٥٨ -) وتشين ران Chen ran (١٩٦٢ -) وغيرهن من المبدعات المعاصرات.

فإبان الإطاحة بعصابة الأربعة[١] عام ١٩٧٦، سارت إبداعات الكاتبات الصينيات المعاصرات فى الطريق نفسه الذى سار فيه الأدب الصينى آنذاك، فكتبت أوائل الكاتبات اللائى ظهرن على

---

(١) «عصابة الأربعة»: هو لقب أطلق على تكتل سياسى يسارى مكون من أربع شخصيات من رموز العمل السياسى فى الحزب الشيوعى الصينى خلال فترة الثورة الثقافية الكبرى من عام ١٩٦٦ إلى ١٩٧٦، والذى ضم السيدة جيانغ تشين زوجة الزعيم الصينى ماو تسى تونغ، وكلا من جانغ تشون تشياو، وياو ون يوان ووانغ خونغ ون، والذين نسب إليهم الكثير من جرائم التواطؤ والخيانة والإضرار الكبير بالعمل السياسى والاقتصادى والثقافى والاجتماعى فى الصين خلال تلك الفترة. (المترجم)

الساحة الأدبية آنذاك فى"أدب الجراح"[1] وسجلت كتاباتهن الكثير من المآسى والجراح التى عاناها الشعب الصينى خلال سنوات الثورة الثقافية (١٩٦٦ ـ ١٩٧٦)، مثل قصة "طفل الغابة" للكاتبة جانغ جييه التى عبرت بعاطفة الأنثى عن جراح الأمة الصينية خلال تلك الحقبة المهمة فى تاريخ الصين المعاصر. وكان ديوان الشاعرة شو تينغ "شجرة المطاط" الصادر عام ١٩٧٧ أول عمل أدبى نسوى يعبر عن التحدى للتقاليد الصينية القديمة والدعوة إلى المساواة والاحترام بين البشر، والإعلان عن ظهور جيل جديد من أجيال المرأة الصينية العصرية، فقد رسمت الشاعرة صورة أنثى رافضة للخضوع للرجل، ومعبرة عن استقلالية الأنثى ومساواتها بالرجل فى مكانتها وحقها فى الحياة. ورواية الكاتبة داى خوو يينغ (١٩٣٨ ـ ١٩٩٦) "الإنسان، الإنسان" (١٩٨٠) التى كانت أول عمل أدبى فى الفترة الجديدة يعبر عن قيمة الإنسان الصينى ومكانته فى العصر الحديث، ففى هذه الرواية الشهيرة كانت دعوة الكاتبة إلى الاهتمام بالإنسان وآدميته وإعادة النظر فى التاريخ الصينى والكشف عن ونقد المعتقدات الإقطاعية البالية والقهر الذى عاناه الإنسان الصينى تحت ضغوط التيارات اليسارية المتطرفة، وطرح

---

(١) أدب الجراح: تيار أدبى مهم فى تاريخ الأدب الصينى المعاصر (١٩٤٩ ـ حتى الآن)، وقد ظل هذا التيار الأدبى يسيطر على الإبداع الأدبى فى الساحة الأدبية فى الصين منذ نهاية السبعينيات حتى مطلع الثمانينيات من القرن العشرين. (المترجم)

قضية كيفية الاهتمام بالإنسان وآدميته وكرامته ومكانته فى ظل النظام الاشتراكى الجديد.

وفى أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن العشرين، كان لتطور اقتصاد السوق دوره الملحوظ على الحركة الأدبية فى الصين، حيث ظهرت فى تلك الفترة قضايا جديدة على الساحة الأدبية الصينية، ولكن إبداعات المرأة لم تتأثر كثيرا بتلك التغيرات التى طرأت على الساحة الأدبية آنذاك، بل إنها مضت تتقدم بخطى ثابتة، فواصلت الكاتبات الصينيات سعيهن إلى التوفيق بين الذات والمجتمع وبين الأدب والحياة الإنسانية وبين المثالية والواقع، ومضت الكاتبات فى اعتمادهن على الإبداع الأدبى للمضى قدما فى تقصى الطريق السليم والمناسب لتطور أدب المرأة الصينية. وفى هذه اللحظة التاريخية تصاعدت الحركة النسائية الغربية وبدأت دخولها إلى المجالات الإبداعية للمرأة الصينية عبر الساحة النقدية، وبدأت تظهر على الساحة الأدبية كثير من الأعمال التى تحمل سمات اتجاهات الحركة النسائية الغربية. وكان من ثمار ذلك أيضا ظهور ما يعرف بكتابات"الحياة الخاصة" أو "كتابات الجسد" على الساحة الأدبية الصينية، والتى كانت أهم ظاهرة تشهدها الكتابات النسوية الصينية فى تسعينيات القرن العشرين، وحيث كانت هذه الكتابات تتخذ من حياة المرأة الخاصة موضوعا لها، وتكتب فى شكل السير الذاتية الخاصة. ولهذا فقد أثار ظهور تلك الأعمال على الساحة

الأدبية آنذاك ردود فعل قوية داخل الصين التى تتمتع بموروث ثقافى كونفوشيوسى عريق، وكانت أعمال الكاتبة الصينية الشابة تشن ران (١٩٦٢ ـ) مثل رواية "الحياة الخاصة" و"ضوء الشفاه"، وأعمال الكاتبة لين باى (١٩٥٨ ـ) رواية "حرب إنسان" و"أحاديث الغرفة" وغيرها من أهم الأعمال التى اتسمت بصفة الكتابات الخاصة فى تاريخ أدب المرأة الصينية المعاصر. كما كان لتطور المجتمع الصينى المعاصر تأثير كبير فى ظهور بعض الأعمال لكاتبات صينيات شابات تعبر عن أمور خاصة بالأنثى، وعن الكثير من المحظورات التى تتنافى مع التقاليد الكونفوشية الصينية، مثل رواية "شنغهاى بيبى" للكاتبة الشابة وى خوى، ورواية "الحلوى" للكاتبة الشابة ميان ميان، وقد تعرضت تلك الأعمال فور صدورها لاستهجان كبير داخل المجتمع الصينى، حيث حرقت أكثر من مائتى ألف نسخة من رواية "شنغهاى بيبى"(١) فور صدورها فى شنغهاى، ورواية "شنغهاى بيبى أو "فتاة شنغهاى": للكاتبة الصينية الشابة وى خوى المولودة فى عام ١٩٧٣، وتخرجت من قسم اللغة الصينية بجامعة فو دان بمدينة شنغهاى، وتعتبر الكاتبة من أهم الكاتبات الصينيات التى مثلت "الجيل الجديد" من الكاتبات الصينيات،

---

(١) جدير بالذكر أن الترجمة العربية لهذه الرواية عن اللغة الإنجليزية صدرت بعنوان «شنغهاى بيبى» ترجمة: ظبية خميس عن منشورات دار الجمل عام ٢٠٠٥. (المترجم)

وتعتبر روايتها "شنغهاى بيبى" من الأعمال المعبرة عن الكتابة الأنثوية فى هذا المجال والكتابة عن الجسد والعوالم الخاصة للمرأة الصينية؛ حيث تطرقت الرواية إلى الكتابة عن تابوهات محرمة فى تاريخ الإبداع الأدبى الصينى بما فيها الشذوذ وتعاطى المخدرات، والحديث عن العلاقات الخاصة بين فتيات صينيات وشباب أجانب، مما أدى إلى موجة سخط واسعة تجاه الرواية والكاتبة فور صدورها، حيث صدرت فى شهر سبتمبر عام ١٩٩٩ عن دار نشر تشون فينغ للفنون والآداب، وحققت مبيعات عالية جدا خلال فترة ستة أشهر وصلت إلى ١٢٠ ألف نسخة، فيما عدا الطبعات غير الرسمية للرواية، وترجمت الرواية إلى عدة لغات أجنبية، وأصدرت الحكومة الصينية فى شهر مايو عام ٢٠٠٠ قرارا بحظر هذه الرواية وإعدام النسخ الموجودة فى السوق آنذاك.

ولم يكن حصول الكاتبة الصينية المعاصرة تييه نينغ على منصب رئيس اتحاد كتّاب الصين عام ٢٠٠٦ متخطية الكثير من الرجال، إلا تتويجا لتاريخ من الإبداع الأدبى الذى أسهمت فيه المرأة الصينية بدور ملحوظ، وأمدت الساحة الأدبية الصينية خلال مائة عام بمادة ثرية ومتميزة، وهو فى الوقت ذاته خير دليل على التطور الكبير والدور الذى أصبحت تمثله كتابات المرأة الصينية المعاصرة فى الأدب الصينى المعاصر.

ويجمع هذا الكتاب بين دفتيه الترجمة العربية لمختارات قصصية لأربع كاتبات من رائدات أدب المرأة الصينية المعاصرة، حيث تكاد تنتمي كل كاتبة منهن إلى جيل خاص، وتعبر كتاباتها عن اتجاه إبداعي مغاير لغيرها من الكاتبات الأخريات.

وأولى هذه القصص قصة "ما أطول هذه الحياة" للكاتبة جانغ جييه المنشورة في العدد الحادي عشر من مجلة "الأدب الشعبي" الصينية عام ٢٠٠٩، والتي تصدرت غلاف أحدث مجموعة قصصية للكاتبة جانغ جييه بعنوان "ما أطول هذه الحياة"، وضمت المجموعة سبع قصص قصيرة وصدرت في يناير ٢٠١٠ عن دار نشر الأدب الشعبي ببكين، وحازت قصة"ما أطول هذه الحياة" جائزة الأعمال الممتازة في الدورة الأولى لجائزة المجموعات القصصية للكتاب الصينيين، أما الكاتبة جانغ جييه المولودة في العاصمة الصينية بكين، عام ١٩٣٧ فهي واحدة من أهم الكاتبات الصينيات في تاريخ الأدب الصيني المعاصر، والتي كتبت القصة والرواية والمقالة، وتخرجت عام ١٩٦٠ من قسم التخطيط والإحصاء بجامعة الشعب الصيني في بكين. ونشرت باكورة أعمالها القصصية قصة "طفل الغابة" في عام ١٩٧٨، والتي جذبت إليها الأنظار آنذاك، حتى حازت هذه القصة على جائزة أفضل عمل قصصي على مستوى الصين لذلك العام، لتنضم الكاتبة جانغ جييه في العام التالي إلى اتحاد الكتّاب الصينيين، وتبدأ مرحلة جديدة مهمة من الإبداع

الثرى، والذى بدأته بقصتها المعروفة "الحب، عاطفة لا تنسى" التى اهتمت بمناقشة موضوع من أهم الموضوعات التى كانت تشغل المجتمع الصينى فى تلك الفترة، وهو موضوع العلاقة بين الحب والزواج، وأثر ذلك على الفرد والمجتمع، وقصة "الحب، عاطفة لا تنسى" واحدة من أهم أعمال جانغ جييه فى مجال القصة القصيرة، وتحكى القصة بإيجاز حكاية البطلة الكاتبة (موا يو) التى أحبت أحد الأبطال الثوريين، ولكن ذلك البطل الثورى تزوج من أرملة رفيق ثورى كان قد استشهد فى إحدى العمليات السرية للحزب، واعتبر حبيب البطلة موا يو أن زواجه من أرملة رفيقه والوقوف إلى جانبها هى وابنتها اليتيمة، ما هو إلا نوع من الإخلاص لرفيقه والحزب. فتأثرت البطلة موا يو كثيرا بفقدها هذا الحبيب الذى لم تتحدث إليه أو تلامس يداها يديه من قبل، وبزواجها من آخر لم تحبه، فراحت تسجل قصتها مع هذا الحبيب الثورى فى مذكراتها الخاصة وتتركها لابنتها الشابة، ناصحة إياها بعدم الاستجابة لضغوط التقاليد الأسرية والأعراف البالية، وألا تسمح لنفسها بأن تتزوج بتلك الطريقة العشوائية التى لا تهتم بمشاعر الإنسان وأحاسيسه، حتى ولو كانت نتيجة صمودها أمام هذه الأعراف والتقاليد البالية أن تظل عانسا إلى الأبد.

ثم توالت أعمالها الروائية التى رسخت مكانتها فى تاريخ الأدب الصينى المعاصر، والتى يأتى من أهمها "الأجنحة الثقيلة"(والتى

حازت على جائزة ماودون الأدبية، وهى أعلى جائزة أدبية فى الصين، والتى تعد نوبل الأدب الصينى) فى دورتها الثانية، وتعد هذه الرواية أول رواية صينية تتناول موضوع الإصلاح الصناعى والاقتصادى فى الصين فى تاريخ الأدب الصينى فى الفترة الجديدة (١٩٧٨/ حتى الآن)، ورواية "شمس واحدة"، والرواية القصيرة "الزمرد" (التى حازت على جائزة أفضل عمل فى مجال الرواية القصيرة على مستوى الصين ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤). ورواية "حرف لا" التى عادت بها الكاتبة للحديث عن موضوع الزواج الذى كانت قد تناولته فى قصتها المعروفة "الحب، عاطفة لا تنسى"، وقد ترجمت أعمال الكاتبة جانغ جييه إلى أكثر من عشر لغات أجنبية.

وتعتبر قصة "ما أطول هذه الحياة" من أهم أعمال الكاتبة فى الفترة الأخيرة. وتتميز القصة بنزعة فلسفية واضحة بدأت تعبر عنها الكاتبة فى أعمالها الأخيرة، خاصة منذ عملها الصادر عام ٢٠٠٢ بعنوان "حرف لا".

ويعتمد السرد فى قصة "ما أطول هذه الحياة" على البطل الذى تختاره الكاتبة حيوان الذئب، ويحاول الذئب منذ بداية القصة التوصل إلى إجابة لسؤال مهم وهو: "من أين يأتى هذا النهر؟" "وإلى أين يذهب؟"، وكأنه يبحث فى ذلك التساؤل الفلسفى المهم "من أين يأتى الإنسان، وما مصيره؟" وهكذا تعبر القصة منذ بدايتها عن النزعة الفلسفية التى تهدف إليها الكاتبة جانغ جييه؛ حيث تهتم

القصة بالسعى إلى الإجابة عن هذا التساؤل من خلال التعبير عن العالم الداخلى والمشاعر والأحلام والمونولوج الداخلى للبطل الذئب، وتسعى الكاتبة من خلال شخصية الذئب إلى رسم صورة "لطبيعة الذئب" التى ترفض التعاون مع الآخر ولا تستطيع التواصل معه، تلك الطبيعة الطامحة إلى الاستقلالية والحرية، والتى أدت إلى حالة العزلة التى يعيشها الذئب، بل والكاتبة ذاتها عن العالم المحيط بها، حتى إن الذئب يصرح فى القصة من خلال حوار داخلى أنه لا ينقصه، بل إنه ليس فى حاجة إلى أى "طرف آخر". غير أن الكاتبة تأتى فى نهاية العمل وترسم له صورة "طرف آخر" وهو الإنسان، حيث يرى الذئب ذلك الإنسان الجريح الذى أصيب بطلقة نارية يتألم من جرحه، ويسبح الذئب فى عالم التفكير فى أمر هذا الإنسان الذى لا يتخلى عن حالة العداء والاعتماد على الأسلحة وغيرها، مما ينغص عليه حياته والفكر المسيطر عليه "بأنه لا بد أن تموت أنت، لكى أنعم أنا بالحياة"، وهكذا يمضى الذئب يفكر فى هذا الصراع وهذه النزعة الفلسفية العدائية، حتى يتوصل الذئب إلى المرض الحقيقى الذى يصيب الإنسان، وهنا يتركه وحده يتألم من جرحه ويرفض مساعدته، حتى إن ذلك الإنسان الجريح يأتى فى اللحظات الأخيرة ويصوب آخر طلقة فى يده تجاه ذلك الذئب الذى كان قد فكر بعض الوقت أن يقوم بمساعدته. وهكذا تصور الكاتبة جانغ جيبه مثاليتها التى تتسم بالمعاناة بما رأته وعايشته فى حياتها الطويلة (١٩٣٧ ـ   )، وتتنازل عن مناجاة

المستقبل وترى أحلامها فى الموت، وترى أنه هو الملاذ الآمن وتترك روحها الحرة الخالدة تحيا فى عالم الأدب.

والقصة الثانية "جبال الذهب والفضة" فهى للأديبة الصينية المعاصرة جانغ كانغ كانغ، المولودة فى مدينة خانغ جوو الجميلة بجنوب الصين عام ١٩٥٥، وتخرجت عام ١٩٧٩ من معهد الفنون بمقاطعة خا إر بين بشمال شرق الصين، وعملت فور تخرجها بمعهد الفنون، ثم كاتبة باتحاد كتّاب مقاطعة خا إر بين، وتشغل الآن منصب نائب رئيس اتحاد كتّاب مقاطعة خا إر بين ونائب رئيس اتحاد الكتاب الصينيين فى دورته السابعة، وعضو اللجنة السياسية الوطنية. لها العديد من الأعمال الأدبية فى مجالات القصة القصيرة والرواية، منها رواية "تشه دان دان جو"(١٩٩٥)، و "الرفيق الغامض"، و "امرأة" (٢٠٠٢)، والقصة الطويلة "السمسم" وقصة "ممرات العشق"(١٩٩٦).

وتنتمى الكاتبة الصينية المعاصرة جانغ كانغ كانغ إلى جيل الكتّاب الشباب المثقفين، والذى ظهر على الساحة الأدبية فى الصين بعد انتهاء الثورة الثقافية عام ١٩٧٦، أمثال الكاتب المعاصر ليانغ شياو شينغ (١٩٤٩ ـ) صاحب روايات "الأرض الساحرة" و"المدينة الثلجية" و"عاصفة ثلجية" وغيرها من الأعمال التى وصفت بدقة حياة الصينيين وعمقها خلال سنوات الثورة الثقافية، تلك

السنوات العشر الخاصة فى تاريخ الصين المعاصرة، حيث كانت الشخصيات الرئيسية فى تلك الأعمال جميعها من الشباب الذين كافحوا واستصلحوا الأراضى البور، وقد عكست تلك الأعمال حالتهم النفسية المتناقضة الناتجة عن حيرتهم بين مثلهم العليا واستحالة تحقيقها على أرض الواقع.

كما تعتبر أعمال الكاتب المعاصر خان شاو قونغ (١٩٥٣ ـ) ـ رائد تيار"أدب البحث عن الجذور" فى الصين ـ من أهم الأعمال التى عبرت عن النقد اللاذع للثقافة الصينية التقليدية وغيرها من المشاكل التى تعوق تطور الصين، مثل قصتى"نظرة غربا إلى أرض المراعى" و"الطيران إلى السماء" الحائزتين على جائزة أفضل قصة قصيرة على مستوى الصين لعامى ١٩٨٠ و١٩٨١ على التوالى. وشه تيى شينغ (١٩٥١ ـ) المصابة بالشلل منذ عام ١٩٧٢، والتى تعبر كتاباتها عن معاناة الشباب المثقفين أثناء سنوات الثورة الثقافية وعن مصير المعاقين فى الصين، والكاتبة الشهيرة وانغ آن إى (١٩٥٤ ـ) التى ركزت كتاباتها الأولى قبل منتصف الثمانينيات على التعبير عن حياة الشباب المثقفين وطموحاتهم فى مستقبل أفضل لوطنهم الصين، وغيرهم من الكتّاب الشباب المثقفين الذين ركزت كتاباتهم فى مجملها آنذاك على معاناة الشعب الصينى والمثقفين الصينيين خلال الثورة الثقافية (١٩٦٦ ـ ١٩٧٦).

وفى تقييمها لواقع الأدب الصينى منذ انتهاء فترة الثورة الثقافية حتى الآن، تعتقد الكاتبة جانغ كانغ كانغ: "أن الثلاثين سنة الأخيرة من عمر الأدب الصينى المعاصر منذ عام ١٩٧٦ حتى الآن تعادل ٣٠٠ سنة، فقد قفز الأدب الصينى خلال تلك الحقبة قفزات سريعة ومتطورة؛ فالصين كانت مغلقة حتى بعد حكم الحزب الشيوعى، وأغلقها الرئيس ماو تسى تونغ، ولم يكن للأدب الصينى فرصة للتواصل مع العالم الخارجى والثقافات الأجنبية، وبعد انتهاء الثورة الثقافية عام ١٩٧٦ بدأ الاهتمام بالأدب فى الصين، وبدأ تأثر الأدباء الصينيين بالغرب، وفى تسعينيات القرن العشرين بدأ دخول الأدب الصينى إلى السوق وأصبح له لون تجارى، وبدأ بعض الكتّاب حينذاك يهتم بأدبية العمل ـ مثل خان شاو قونغ وسو تونغ ـ الذين كتبوا الكثير من الأعمال التى تحمل مغزى ثقافيا صينيا عميقا. ومؤخرا بدأ الإيمان بأن الكاتب يكتب للإنسان فى مجمله، ولابد له من التواصل مع العالم الخارجى"(١).

وحصلت أعمال الكاتبة جانغ كانغ كانغ على العديد من الجوائز الأدبية داخل الصين منها: جائزة أفضل قصة قصيرة على مستوى الصين، وجائزة أفضل قصة طويلة على مستوى الصين، وجائزة لوشيون الأدبية، وجائزة الإبداع فى أدب المرأة الصينية، وغيرها من الجوائز الأدبية داخل الصين، وترجمت بعض من أعمالها إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية واليابانية والروسية.

---

(١) حوار المترجم مع الكاتبة الصينية المعاصرة جانغ كانغ، بكين ٢٥ ـ ١١ ـ ٢٠٠٦.

وقصة "جبال الذهب والفضة" للكاتبة جانغ كانغ كانغ نشرت مسلسلة فى حلقات فى مجلة "أدب بكين" عام ٢٠٠٥، وتدور القصة حول رحلة العجوز (لى دا) الذى جاء من الريف البعيد إلى العاصمة بكين؛ ليساعد ابنه وزوجته فى رعاية حفيدته الصغيرة (حاله فى ذلك حال الأعداد الكبيرة من المسنين الصينيين الذين يتولون رعاية أحفادهم لانشغال أبنائهم بالعمل) والتى لا يملك والداها الوقت لرعايتها والبقاء معها منذ أن رحلوا إلى العاصمة بكين للعمل، حالهم فى هذا حال الكثير من العمال الصينيين البسطاء الذين نزحوا إلى العاصمة بكين بحثا عن لقمة العيش. وما إن جاء العجوز لى دا إلى بكين، حتى بهرته أضواؤها وميادينها وفيلاتها الجميلة، فقرر أن يبحث لنفسه عن عمل إلى جانب اهتمامه بحفيدته، وبعد فترة غير وجيزة من البحث، توصل لى دا إلى عمل بسيط ومريح ومربح بالنسبة له، حيث قرر أن يقوم بجمع النفايات التى يلقى بها أهل المدينة، وخاصة سكان الفيلات فى أحد أحياء بكين الفاخرة، وبعد رحلة طويلة مع هذا العمل المربح الذى جمع من خلاله الكثير من الأشياء التى يندر وجودها فى مسقط رأسه، وبعد أن قام بتخزين الكثير من الأشياء التى جمعها استعدادا لأن يحملها معه عند عودته إلى القرية ليهديها لأولاده وأحفاده وأهله هناك، إذ جاء عجوز آخر أيضا من القرية نفسها التى جاء منها لى دا، وسرق هذا العجوز جميع الأشياء التى اختزنها لى دا.

وقصة "جبال الذهب والفضة" للكاتبة جانغ كانغ كانغ تعتبر من أهم أعمالها فى الفترة الأخيرة منذ بداية القرن الجديد، بل وتعد من الأعمال المهمة للكاتبة، والتى عبرت عن تحول كبير فى مسار إبداعات جانغ كانغ كانغ؛ حيث كانت أعمالها من قبل تهتم فى المقام الأول بالعاطفة والمشاعر الرومانسية الرقيقة بين الرجل والمرأة، والنقد للكثير من الأخلاقيات الإنسانية التى تقف حاجزا أمام تحقق المشاعر الرومانسية البريئة واكتمالها، فكانت القصة الجميلة "جبال الذهب والفضة" العمل المهم الذى عبر عن تحول اهتمام الكاتبة بعالم المرأة وما اعتادته الكاتبة فى كتابة الأعمال الأدبية التى ترتكز فى معظمها على الخبرات الخاصة للكاتبة، إلى اهتمامها بالواقع الصينى المعاصر فى كليته، ورصدها لظواهر جديدة فى المجتمع الصينى المعاصر، والتعبير عن اختلاف واقع المدينة والريف والإنفاق المادى المفرط فى المدينة، واكتشافها لعوالم جديدة لم يسبقها إليها أحد من الكتاب أو الكاتبات الصينيات من قبل. لقد كانت كانغ كانغ هى أول كاتبة صينية سبقت إلى اكتشاف عالم جامعى القمامة فى الصين، وعبرت بقلمها عن الوصف الدقيق لسلوكيات لتلك الفئة الخاصة من البشر وعوالمهم النفسية، وكأن الكاتبة كانت قد عاشت هذا العالم من قبل وجاءت لتعبر عنه بقلمها بوصفها كاتبة، وخاصة أنه قد تزايد فى السنوات الأخيرة عدد جامعى بقايا الآخرين وفضلاتهم فى الصين، وخاصة فى

العاصمة بكين وغيرها من المدن الكبيرة (ونقصد بجامعى القمامة تلك الفئة البسيطة من الناس الذين يقيمون فى المدينة لظروف العمل أو لأية أسباب أخرى، ويستغلون أوقات فراغهم فى جمع المواد البلاستيكية والأوراق وغيرها، مما يمكن بيعه أو إعادة استخدامه فى الحياة اليومية، ولا نعنى بهم هولاء العمال المسجلين بالدولة). وحيث من الممكن أن ننظر إلى عمل كانغ كانغ الرائع "جبال الذهب والفضة" على بحث أكاديمى دقيق يقوم برصد ظاهرة اجتماعية جديدة فى عالم المدينة الصينية الحديثة منذ بداية القرن الجديد، بل إنه فى الوقت نفسه يعبر عن التطور الكبير الذى شهدته العاصمة الصينية بكين وتنامى طبقة الأثرياء فيها، وتعبر عن النقد والسخرية من واقع بكين وواقع أثريائها؛ فالأغنياء فى بكين يلقون بقصد أو غير قصد بالكثير من الأشياء الثمينة والمفيدة، حتى إن البطل العجوز لى دا جمع من القمامة (تليفونًا محمولاً)، ذلك التليفون الذى كشف فى النهاية أمره أمام رجل الأمن والناس فى الحى من خلال سماعهم جميعا صوت الأغنية التى كانت مسجلة على التليفون؛ فالقصة تعكس أن بكين اليوم ٢٠٠٥ لم تعد هى بكين الثورة الثقافية ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧، وإنما شهدت تغيرات كبيرة جدا، وقد اختارت الكاتبة أغنية "أعلى سفح جبال الذهب فى بكين" لتكون هى الأغنية المسجلة على التليفون الذى كشف أمر لى

دا، لأن هذه الأغنية تعبر عن واقع الثورة الثقافية، وهى أغنية شهيرة فى مدح الزعماء والقادة.

أما القصتان الثالثة "شيانغ شويه" والرابعة "موضوع شهر يونيه" فهما للكاتبة الصينية المعاصرة - الرئيس الحالى لاتحاد كتاب الصين - الكاتبة تييه نينغ.

ولدت الكاتبة تييه نينغ عام ١٩٥٧ بالعاصمة الصينية بكين، ثم عادت وعمرها أربعة أعوام إلى مسقط رأس أبيها فى مدينة باو دينغ بمقاطعة خه بيى شمال الصين، وبدأت تييه نينغ الكتابة فى مرحلة الدراسة الثانوية، ونشرت أول عمل لها بعنوان "الفأس الطائرة" عام ١٩٧٤ بمجلة "باو دينغ الأدبية"، وفى عام ١٩٨٢ نشرت مجلة "أدب الشباب" ببكين القصة القصيرة "شيانغ شويه" للكاتبة تييه نينغ، والتى أحدثت فور صدورها ضجة كبيرة على الساحة الأدبية الصينية، وحصلت على أفضل قصة قصيرة على مستوى الصين لعام ١٩٨٢، ثم توالت بعد ذلك إبداعات الكاتبة تييه نينغ التى شملت أعمالاً فى القصة القصيرة والرواية والنثر، وفضلا عن قصتها الشهيرة "شيانغ شويه"، من أهم أعمالها فى مجال القصة أيضا "قميص بلا عراو" و"موضوع شهر يونيه" الحائزتان على أفضل قصة قصيرة ونوفيلا على مستوى الصين. ومن أهم أعمالها فى مجال الرواية روايات "باب الورد البلدى"، و "أكوام القطن"، و "أكوام القمح"، و "مدينة بلا أمطار" وغيرها من الأعمال القصصية والروائية، وتشغل الكاتبة تييه نينغ منذ ٢٠٠٦ بعد رحيل

شيخ الأدب الصينى باجين منصب رئيس اتحاد كتاب الصين ورئيس اتحاد كتّاب مقاطعة خه بيى شمال الصين، وتعد تييه نينغ أول كاتبة صينية ترأس منصب رئيس اتحاد كتاب الصين منذ تأسيسه فى بكين عام ١٩٤٧.

وقد اختلف الكثير من نقاد الأدب الصينى فى تصنيف إبداعات الكاتبة تييه نينغ الثرية: فمنهم من يصنف كتاباتها ضمن كتابات الشباب المثقفين مع جانغ كانغ كانغ، ووانغ آن إى، وخان شاو قونغ وغيرهم، ومنهم من يصف إبداعاتها بأنها تزخر بالجمال الفنى الذى يندر وجوده فى أعمال كتّاب وكاتبات كثيرين على الساحة الأدبية الصينية، وهناك الكثير من النقاد يضعونها مع الكاتبة المعاصرة صاحبة الإنتاج الأدبى الغزير وانغ آن إى بوصفهن كاتبات معاصرات يغلب على إبداعهن التنوع فى الشكل والأسلوب والمادة الأدبية: تمشيا مع ظروف العصر والتطور السريع الذى يشهده المجتمع الصينى المعاصر.

وتعتبر الكاتبة تييه نينغ من أوائل الكاتبات الصينيات المعاصرات وأهمهم، واللاتى اهتمت إبداعاتهن برصد جوانب خاصة فى شخصية المرأة الصينية: حيث ركزت كثير من أعمال تييه نينغ على التعبير عن العالم الداخلى للأنثى والوصف الدقيق لتفاصيل حياة المرأة الصينية المعاصرة، وهى دائما ما تراعى فى كتاباتها أن تكون من منظور وسط لا يعبر عن وجهة نظر نسوية أو رجولية خالصة.

وتعتبر قصة "شيانغ شويه" هى العمل المهم الذى أخذ باسم تييه نينغ إلى عالم الشهرة على الساحة الأدبية الصينية عام ١٩٨٢؛ حيث فازت القصة فى نفس عام نشرها بمجلة "أدب الشباب" بجائزة أفضل قصة قصيرة على مستوى الصين، وتحكى القصة حكاية بسيطة حدثت فى قرية نائية من قرى مقاطعات وسط الصين قرية تاى إر قوو، وهى قرية جبلية صغيرة معزولة عن العالم الخارجى الكبير، ولكن حدث مد خطوط السكة الحديد إلى القرية ووقوف أحد القطارات عندها كل يوم لمدة دقيقة واحدة، الأمر الذى غير من الصمت الرهيب والعزلة المميتة التى كانت تخيم على القرية وأهلها، وفرحة الفتيات الصغيرات فى القرية بالقطار واستعدادهن للترحيب به وبركابه فى مساء كل يوم، وكانت الصغيرة شيانغ شويه طالبة الصف الإعدادى الوحيدة فى القرية، والتى اكتشفت من خلال القطار الذى يمر على قريتها الكثير من أسرار العالم الخارجى، وأظهرت القصة نظرتها إلى القطار بوصفه يمثل الحضارة الحديثة التى لم تشهدها القرية بعد، وسعيها للحصول على تلك المقلمة البلاستيكية من إحدى راكبات القطار؛ حيث كان تعلق شيانغ شويه بالقطار وسعيها للحصول على أدوات الكتابة الحديثة التى تفتقر إليها القرية هو تعبير عن انتقالها من مرحلة التخلف والفقر إلى السعى إلى الحضارة الحديثة والمثل العليا والعلم، وكانت شيانغ شويه على النقيض تماما من صديقتها فينغ

جياو التى تتطلع إلى الحضارة الحديثة من خلال سعيها إلى تملك الأشياء المادية (دبابيس الشعر الجميلة والساعة الذهبية).

وحظيت القصة فور صدورها بترحيب كبير من قبل جمهور النقاد والقراء؛ حيث نالت ترحيب الكاتب الصينى الكبير - ووزير الثقافة الأسبق - وانغ مينغ الذى قال عنها فور صدورها: "إن قصة "شيانغ شويه" أنشودة جميلة لتزكية النفس البشرية، حيث تزخر شخصياتها وجميع تفاصيلها بحيوية صادقة، ويزخر أسلوبها بالجمال الفنى الذى يميز كتابات الكاتبة"، وينظر وانغ مينغ إلى شخصية شيانغ شويه على أنها" الشخصية المحورية فى إبداعات تييه نينغ القصصية خلال السنوات الأولى من أدب الفترة الجديدة". (١)

أما قصة "موضوع شهر يونيه" للكاتبة تييه نينغ والصادرة عام ١٩٨٣ والحائزة على جائزة أفضل قصة قصيرة على مستوى الصين، فهى أيضا من الأعمال القصصية المهمة للكاتبة، والتى تعبر عن النقد المباشر للفساد الذى انتشر فى مؤسسات المجتمع الصينى فى بداية ثمانينيات القرن العشرين.

أما قصة "الأعمى بائع الصحف"، فهى للكاتبة الصينية الشابة تشه تزه جيان، وهى أحد أهم الأصوات الأنثوية على الساحة

---

(١) وانغ مينغ: «حول بعض الكتّاب وأعمالهم» أعمال وانغ مينغ الكاملة الجزء السابع،

الأدبية الصينية المعاصرة، ولدت عام ١٩٦٤ بقرية بيى جى بمقاطعة خا إر بين بشمال شرق الصين، وتخرجت عام ١٩٨٤ بكلية آن لينغ للمعلمات فى مقاطعة خا إر بين، والتحقت عام١٩٨٧ بمعهد الدراسات العليا الذى تشرف عليه جامعة المعلمين فى بكين ومعهد أدب لوشيون، وتخرجت منه عام ١٩٩٠ لتلتحق فور تخرجها للعمل باتحاد كتّاب مقاطعة خا إر بين حتى الآن. بدأت تشه تزه جيان مشوارها الإبداعى عام ١٩٨٣، وتنوعت إبداعاتها الأدبية ما بين القصة القصيرة والرواية والنثر، صدر لها "تحت الأشجار"، و"حكايات قرية بى جى"، وقد حصلت أعمال تشه تزه جيان على عدة جوائز وأوسمة صينية وعالمية، أهمها جائزة أدب لوشيون الصينية، والتى حصلت عليها الكاتبة فى دوراتها الأولى والثانية والرابعة، وعلى جائزة "أفضل رواية قصيرة على مستوى الصين (٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٦)"، وعلى جائزة الكاتبة الصينية بينغ شين فى مجال النثر، ثم توجت إبداعاتها بنيل جائزة مادون الأدبية (والتى تعد نوبل الأدب الصينى) فى دورتها السابعة عام ٢٠٠٨، ونالت هذه الجائزة الأدبية الرفيعة عن روايتها "الضفة الجنوبية لنهر أرجون".

وتهتم أعمال الكاتبة الشابة تشه تزه جيان ببيئة شمال شرق الصين وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم الخاصة: فمعظم أعمالها تتخذ من قرى مقاطعة خا إر بين وأريافها مسرحا لها، وهى فى ذلك تتجاوز الكاتبة الشهيرة شياو خونغ ابنة خار إربين، والتى كانت أول

الكاتبات الصينيات اللاتى اهتممن ببيئة شمال شرق الصين فى الثلاثينيات من القرن العشرين.

وقصة "الأعمى بائع الصحف" من الأعمال المهمة التى أبدعتها الكاتبة تشه تزه جيان، نشرت القصة لأول مرة بمجلة "أدب تيان جين" عام ١٩٩٤، وتحكى القصة حكاية زوجين ضريرين يعتمدان فى كسب قوتهما على بيع الصحف والمجلات، ينعمان بحياة مستقرة وآمنة، ولكن بعد اكتشاف أن الزوجة وانغ ياو تشين حامل، تتغير حياة الزوجين المستقرة وتبدأ معاناتهما فى التفكير والقلق من أمر الطفل، وهل سيولد ضريرا مثل أبويه أم أنه سيكون بصيرا؟ وبعد أن اتفقا على أن يقوما بجمع التبرعات لأجل أن يعالجا الطفل إذا ما ولد ضريرا، يصادفهما الكثير من العقبات والمحن، منها قلة المتبرعين وشكوك الناس فى أمرهما وتوهمهم أنهما يخدعان الناس بأمر الحمل هذا لأجل جمع المال، ثم مأساة انتحار العجوز ليو جارتهما وما حدث بينها وبين زوجة ابنها وحفيدها المدلل، فيقرر الضريران توقفهما عن جمع التبرعات للطفل وعدم الانشغال بأمر عينى الطفل، وإيمانهما بأنه من الأفضل أن يولد الطفل أعمى حتى يشعر أنه ينقصه شىء ما ويسعى لتحقيق الكثير معتمدا على نفسه، وإلا كان مدللا كسولا كحفيد الجدة ليو، وتعبر القصة عن الصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان، وصخب الحياة المعاصرة وظلم الناس بعضهم بعضا وتفشى الكثير من الأمراض الاجتماعية بين الناس.

وفى النهاية أتقدم بوافر الشكر لأستاذى الفاضل الدكتور محسن فرجانى الذى شرفنى بقراءة هذه المختارات القصصية.

تمت بحمد الله..

د. حسانين فهمى حسين

القاهرة فى أغسطس ٢٠١١

ما أطول هذه الحياة!

بقلم: الصينية المعاصرة: جانغ جييه

بانتمائى إلى جنس الذئاب، فإنه لا يجب أن أرهق نفسى بالتفكير فى سؤال مثل: من أين ينبع هذا النهر؟حيث إن استمرارى فى التفكير فى مثل هذا السؤال، سيقودنى حتما إلى التفكير فى سؤال آخر مرتبط به وهو: إلى أين يجرى هذا النهر؟

ففى عالمنا هذا، يوجد الكثير من الأسئلة التى نعجز عن التوصل إلى إجابات مقنعة لها، وإذا لم أتخل عن هذه الحماقات، فإننى حتما سأجلب لنفسى الكثير من المتاعب التى ستنغص علىّ حياتى. غير أننى دائما ما أبدو هكذا أعرف الحقيقة تمام المعرفة، ولكننى شديد العناد فى مواجهتها، أليس فى حياة كل كائن حى أشياء وأمور تخصه يتصرف فيها كما يشاء؟ وعلى الرغم من قصر حياتنا نحن معشر الذئاب، حيث تكون حياتنا دون العشرين عاما، فإننى إذا لم أجد خلال هذه الرحلة القصيرة ذلك الطرف الآخر الذى يتفهمنى وأستطيع أن أبوح له بما فى داخلى، فإن هذه الرحلة حتما

ستكون طويلة للغاية، وأعتقد أننى سعيد الحظ بكونى أنتمى لجنس الذئاب، حيث كان لى الحظ فى مصادفة هذا النهر الكبير الذى يجرى وسط هذا الجبل العميق وهذه الغابة الكبيرة، ولكننى ـ فيما عدا هذا النهر والجبل وهذه الغابة ـ لا أعرف ما الأشياء التى تخصنى فى هذا العالم، ولا أعرف أيضا ما الذى يملكه غيرى من الذئاب، فقط أعى جيدا أن هذا النهر الكبير يخصنى دون غيرى من الذئاب.

وكنت فى كل مرة أقود فيها قطيعا من الذئاب فى رحلة البحث عن الغذاء بقرب النهر الكبير، أنظر إلى القطيع نظرات متفحصة وأمضى أفكر فى أسئلة تجعلنى فى حيرة شديدة، من الذى شق هذا الجبل الشاهق وصنع هذا الممر الطويل الذى تجرى فيه مياه هذا النهر الكبير، وجعله يجرى إلى حيث يريد دون أى عوائق؟ ولماذا أقبع دائما فى هذه البقعة الصغيرة التى تخصنا معشر الذئاب؟ وعندما كنت أسير بمفردى بجوار هذا النهر، وأتفحص هذه البقعة التى تخصنا معشر الذئاب، كنت أقف طويلا إلى جانب النهر وأتأمل مياهه التى تجرى بلا أى عائق، وأشعر بأنه قادر على أن يشاركنى أحاسيسى التى لا يمكن أن يشاركنى فيها الذئاب، وأنه يستطيع أن يحملنى إلى أبعد البقاع.

وبالطبع فإنه لا يهمنى أن أعرف إلى أين سيحملنى هذا النهر.

وفى تلك اللحظات التى كنت أفكر خلالها فى أحاسيسى التى يشاركنى فيها النهر الكبير، وفى الهراء الذى كان يدور بيننا، كنت أشعر بأن تلك اللحظات هى أصدق لحظات أعيشها مع نفسى. وكنت أنظر إليه من جميع الاتجاهات وأسأل نفسى: هل أحس يوما بما أحس به من حيرة وحزن؟ وما تلك القوة التى تجعله يجرى دائما هكذا ولا يبالى بأن يشارك غيره فى أحزانه وحيرته؟ وهل يجرى ويسعى للوصول إلى هدف ومكان يقصده دون غيره؟ وهل له موطن يخصه؟ وهل لو كان له موطن بعينه، فهل يرغب فى هجره إلى غيره من الأوطان؟ وهل يرغب فى التشرد وسط الأوطان المختلفة؟ وأين يوجد موطنه الأصلى؟ وما مصدر هذا الأصل؟ وربما كان فى استطاعة الإنسان الذى يزعم أنه لا يجهل أى شىء الإجابة عن هذه الأسئلة؟ غير أن جميع إجابات البشر دائما ما تكون إجابات مشوهة وغير دقيقة، تشبه تماما أحكامهم التى يصدرونها بشأننا معشر الذئاب.

فإذا كان البشر عاجزين عن الإجابة عن أسئلتهم الخاصة، فكيف يستطيعون التصدى للإجابة عن أسئلتنا وهمومنا معشر الذئاب؟ وبمعنى آخر، من منكم رأى إنسانا بإمكانه التوصل إلى حلول مناسبة لمشكلاته وقضاياه الخاصة؟ وها أنا أعود إلى حماقتى من جديد، وأخوض فى موضوعات أكثر خطورة؛ حيث أعتقد بأن أى جماعة من الأحياء التى تعيش على سطح الأرض إذا

لم تستطع مواجهة المشكلات والقضايا المختلفة التى تؤرقها، وأنها إذا مضت فى خداع ذاتها وتوهم القدرة والشجاعة على مواجهة أخطر القضايا، فإننى على ثقة بأن هذه الجماعة إنما تكتب نهايتها بنفسها، ومن منكم رأى أيا من الحيوانات ذئبا أو أسدا أو نمرا أو فهداً، أنا أبدو وكأننى أصبحت أسيرا للأنهار، ولا أعرف ماذا أفعل لفك قيودى وأسرى، ولكن الحقيقة التى تبدو أمامى، هى هل هذه الأنهار لا يمكنها التخلص والهروب من قيود هذا العالم التى تقيد جميع الأحياء والأشياء؟ وبغض النظر عن الأماكن المختلفة التى تجرى إليها مياه الأنهار، فإنها دائما تكون أسيرة لهذا العالم الخانق. ومن ثم فقد كانت الأسئلة التى تراودنى فى هذا الشأن تتمثل فى هل تبلغ هذه الأنهار الشيخوخة؟ وهل يأتى عليها ذلك اليوم الذى تكره فيه الحياة وتتمنى الموت؟ إنها تساؤلات تنقصها الأدلة والبراهين. وبصفتى واحداً من الذئاب، فإننى أعلم جيدا أننى الأفضل بين الذئاب من حيث قدرتى على مساعدتهم فى تحديد الطرق التى يسلكونها، وفى قيادتهم للخروج إلى صيد الفرائس، وأيضا فيما يخص تنظيم قطعان الذئاب ومعالجة أمورهم الخاصة. وحيث كانت الطرق التى كنت أختارها للقطيع أكثر الطرق التى ننعم فيها بصيد وفير، وكانت أيضا أقرب الطرق وصولا إلى الهدف الذى نسعى إليه، والأهم من ذلك كله أنها كانت أكثر الطرق أمانا وبعدا عن كل الصعاب التى تعترضنا، وكنت أركض فى تلك

الطرق ركضا سريعا جدا هو أشبه بسرعة الرياح أو يفوق ذلك، وكانت هذه المنطقة التى اخترتها لقطيع الذئاب منطقة يصعب العثور فيها على أى أثر للإنسان، وكانت منطقة تتميز بالوحشة، تلك الوحشة التى تشبه ذلك الشعور الذى يسيطر على قلبى، فهى أكثر المناطق الملائمة لمعيشتنا معشر الذئاب، وهذا بالطبع يعكس حجم المعاناة التى نواجهها فى معيشتنا، غير أن اختيارى مثل هذه المنطقة إنما يعبر عن أننى أمتلك القدرة على مواجهة الصعاب التى تعترضنا فى هذه المنطقة.

ولا داعى لأن أعدد بطولاتى فى المقاومة وصيد الفرائس، حتى ولو كانت الفريسة زرافة يزيد حجمها عن حجم الذئب، فقد كنت آتى عليها من أول قضمة، ويرجع السبب فى ذلك إلى أننى كنت قبل أن أهم بالصيد، أراقب فريستى جيدا، وأقدر المسافة بينى وبينها، وبينها وبين جماعة الزرافات من جنسها، وأقدر بإتقان كل حركاتى وسكناتى بما لا يثير الشك عند الفريسة التى أقصدها.

وعندما كان الضوء ينعكس على جسدى، كنت أرى بوضوح تلك الخيوط والأشعة الفضية التى تنبعث من كل خصلة فى شعرى، حتى يبدو شعرى مشبعا باللمعان المنبعث منه، وبالطبع كان هذا اللمعان هو اللون الطبيعى الذى كان ولا بد أن تبدو عليه الذئاب.

ونادرا ما كنت أصدر أصواتا عالية تزعج غيرى من الذئاب، ومن ثم فقد كانت الذئاب عندما ترانى قابعا فى مكانى، هادئا لا أتسبب

فى أدنى إزعاج وقلق لها، فقد كانت الذئاب جميعها تبادلنى الاحترام وتحنى لى الرءوس.

وفى الحقيقة إننى لا أعرف إذا ما كان علىّ أن أشعر بالفخر، أم بالحزن تجاه هذه العلاقة المتبادلة بينى وبين الذئاب.

وحيث إننى لم أكن أفكر مطلقا فى أن أكون قائدا لقطيع الذئاب، ولكن من ذا الذى جعلنى أبدو بهذه الصحة وأمتلك بنيانا قويا منذ ميلادى؟ وكان هذا هو المعيار الأول الذى يتم على أساسه اختيار قائد قطيع الذئاب.

أما عن سبب قيامى بتأدية دورى قائدا لقطيع الذئاب على خير وجه، فإن ذلك يرجع إلى إصرارى وإيمانى بضرورة تأدية المسئوليات المنوطة بى على خير وجه، وإننى أعتبر كل ما يخالف ذلك مرضا عضالا، وحيث إن الجوع والعطش يجبراننا على السير فى تلك الرحلة الشاقة بحثا عن الطعام والشراب؛ رغبة منا فى مواصلة الحياة، وحيث لا نتوقف عن السعى والتنقل والهروب من مكان إلى آخر، حتى إننى أصبحت لا أعلم إن كان هذا السعى شكلا من أشكال البقاء على سطح الأرض، أم أنه هدف نسعى جميعا إليه، وهل طبيعتنا هى التى تحثنا على ذلك، أم أن هناك أسبابا أخرى؟ وبمعنى آخر، هل هذا السعى هو رغبة فى استمرار الحياة أم أنه ضياع لها؟ بالطبع نجد أن كل الأدلة والبراهين تؤكد

أنه استمرار للحياة، هذا على الرغم من أن هذا الأمر يخالطه بعض الحزن، وفى النهاية يبقى أننا لا يمكن أن نهرب من الإحساس بالجوع والعطش، وأن أكثر إحساس أعرفه تمام المعرفة هو الإحساس بالجوع والعطش، وهكذا تبدو الحياة عديمة اللذة. غير أننى فى اللحظة الحاسمة ما بين الحياة والموت، سأنطلق وأختار الكفاح والنضال؛ رغبة منى فى الهروب من مصير الموت. ولا غرابة هنا أن يصفنا البشر بأننا ننتمى إلى فصيلة الحيوانات من الطبقة الدنيا، وفى الحقيقة إن هؤلاء البشر يمتلكون بعض القدرة على التحكم فى حياتهم الخاصة، حيث إنهم إذا ما كرهوا الحياة، كان أمامهم العزيمة والقدرة على اتخاذ القرار المناسب واختيار الانتحار، وعندما أفكر فى هذه النقطة تحديدا، أشعر بأننى أحسدهم على ذلك.

وبالطبع فإننى ذئب بارع، أو كما ذكرت آنفا أستطيع القيام بالمهام والمسئوليات المنوطة بى على خير وجه، غير أن المسئولية التى أخشاها هى أنى مضطر لقيادة قطيع الذئاب بحثا عن المأكل والمشرب؛ فالعالم الذى نعيشه اليوم لم يصبح ذلك العالم الذى كان منذ عشرات أو مئات السنين، وحيث تزداد صعوبة عملية البحث عن المأكل يوما بعد يوم، حتى أصبحت صغار الذئاب التى لم يكد يمر وقت طويل على ميلادها، أصبحت تعرف حق المعرفة صعوبة البحث عن المأكل والمشرب، وبسبب الجوع والعطش، كنت قد

ارتكبت بعض الأمور التى جعلتنى أشعر بالخزى من الإقدام على فعلها، ففى يوم من الأيام كان قد بلغ بى الجوع مداه، وكنت تسللت إلى داخل غابة أشجار دون علم قطيع الذئاب الذى كنت مسئولا عنه، وكان ذلك لأجل الفوز بخلية نحل وسط تلك الغابة.

وقد تمكنت من التهام خلية النحل بأكملها، ولكن انقضت علىّ جماعات لا حصر لها من النحل، وتركت آثارا كثيفة عند فمى ووجهى، بل إنه عندما حاولت الفرار من وسط الغابة، اعترضتنى أشواك الأشجار، ووخزتنى بشدة فى قدمى الأمامية، ولم أكن أتخيل وجود غابات أشجار بهذه الشراسة وكأنها تمساح ضخم يفتح فمه لأقصى درجة، ومضيت أحاول التخلص من تلك الأشواك الحادة مستخدما أسنانى، ولكن أسنانى تأثرت تأثرا واضحا حتى سالت من بينها الدماء، وبعد وقت غير قصير، استطعت التخلص منها ولذت بالفرار والدماء تسيل من قدمى الأمامية، وعلى الرغم من كل ما تعرضت له فى ذلك الموقف الصعب، فإن قطيع الذئاب الذى يتبعنى لم ينتبه إلى ما حدث لى فى هذه الرحلة الشاقة.

ولم يكن هذا هو السبب الأول فى تلك المتاعب والأحزان التى سيطرت علىّ، حيث لم يكن الجوع والعطش والمرض والجروح قط سببا رئيسيا فى جرح مشاعر الذئاب، وإنك إذا كان قدر لك أن تولد ذئبا، لكنت أدركت هذا الأمر ببساطة؛ فالمشكلة الرئيسية تتمثل فى أنه بكونك ذئبا فإن قيامك بمهاجمة خلية نحل وإساءة معاملة خصم ليس هو الخصم المناسب لك لأجل الفوز بالمأكل الذى

تحتاج إليه، فإن ذلك يعد تجاوزا منك على هذا الخصم الضعيف. ولكننى مضطر إلى أن أسعى للبحث عن المأكل الذى يحتاجه قطيع الذئاب، وعلى أن أبذل ما فى وسعى للحصول على ذلك لأجل استمرار حياتى وحياتهم، ومن ثم فقد يكون هناك الكثير من التجاوزات. ولا شك أن السبب فى ذلك واضح للجميع، فلم نعد اليوم نعيش عصر البطولات والفرسان، ولكن الذئب لا يمكن أن يعيش فى عصر لا يعترف بوجود الفرسان والبطولات. ومن ثم، ألسنا محقين فى أن نشعر بأن هذه الحياة طويلة للغاية ونحن نسعى للحفاظ على بعض من كرامتنا؟ وبالمقارنة بأسلافنا والعصور التى مضت، فإن هناك الكثير من الحيوانات قد انقرض، ولكن ما السبب الذى جعلنا نحن الذئاب نبقى حتى اليوم؟ وجعلنا نواجه مثل هذه المتاعب والمواقف حتى اليوم، هل هذا من العدل فى شىء؟ لقد جعلتنى هذا الحياة التى ترغبنى فى الركض والجرى وراء حاجتى بشتى الوسائل رغبة فى استمرار الحياة، لقد جعلتنى هذه الحياة أشعر بالوحدة والملل وخيبة الأمل، وقد فتر حماسى فى هذه الحياة، فلقد تغير كل شىء حتى ما يخص إرادتى فى السعى للبحث عن فريستى والقبض عليها.

والأمر الأكثر غرابة هو تغير شعورى باللذة والمتعة تجاه الجنس الآخر فى موسم التزاوج، فأى من أنثى الذئاب بإمكانها أن تتحمل هذا الشعور بانعدام اللذة والمتعة من ذئب بل وذئب قائد مثلى؟ إن ذلك لا يعد فقط كبحا لشهوتها، بل إنه يُعد تعديا على كرامتها ببوصفها أنثى.

ومنذ ذلك الحين، لم أعد أفكر فى الاجتهاد وفى كيفية قيامى بدورى بوصفى قائدا لقطيع الذئاب، وكان الدليل الواضح على هذا، هو مطاردتى الأخيرة للجاموس البرى، حيث كان المعتاد أن أفعله بعد هجوم كهذا، أن ألوذ بالفرار بأقصى سرعة ممكنة، غير أن ما حدث فى تلك المرة كان على العكس تماما؛ فلم أفشل فقط فى الفرار من أمام قطيع الجاموس البرى، بل واستطاعت واحدة أفراد الجاموس أن تصيب حاجبى بقرنها الطويل، وكنت من قبل أستطيع أن أحدد اتجاه الخطر القادم من المنافس الذى أواجهه، غير أننى فى هذه المرة أخطأت فى التصدى للخطر، ولا أعرف لماذا اجتهدت فى عض الجاموسة فى أردافها وبعدت عن حنجرتها.

ومنذ ذلك الحين بدأت قدرتى على الهجوم والدفاع وغيرها من القدرات فى التدهور، وتغير حالى كثيرا عما كان عليه فى شبابى، ذلك العصر الذهبى الذى كنت أتمتع فيه بالذكاء الحاد والقوة الخارقة.

وأعتقد أن السبب فى ذلك هو أن شجرة المعرفة والفكر والقوة التى كنت أمتلكها قد اعترتها حالة من الذبول، وأى قوة فى عالمنا هذا يمكنها أن تنتصر على هذا "الذبول" أو "الشيخوخة"؟ وأى محاولة فى سبيل ذلك تبدو وكأنها جانب من مأساة نتيجتها معروفة للجميع، حتى إن هذه الحقيقة تجعلنى أشعر بكثير من الدهشة، وليس السبب فى ذلك الوحدة والعزلة التى يعيشها كائن

ما، بل إنه الانفصال والاغتراب عن العالم المحيط به، وأعتقد أننى بالتأكيد لست ذئبا عاديا مثل تلك الذئاب التى تعيش على سطح الكرة الأرضية حاليا، بل إننى أحد الذئاب الأوائل الذين غادروا هذا العالم منذ زمن بعيد، ثم هبطت فجأة عبر الزمن لأجد نفسى فى هذا العالم المعاصر، وأثق فى أن هذه البقعة من الأرض ليست بوطنى، وأن وطنى الحقيقى هنالك خارج حدود هذا العالم الضيق، وأن والدىّ ليسا هما اللذان ولدانى وربيانى، بل إنهما من هؤلاء الأسلاف الذين يجب أن أمضى فى سبيل البحث عنهم جميعا.

ولم أعد أفكر فى القيام بدور قائد الذئاب، فلقد قدمت لقطيع الذئاب التى كنت مسئولا عن قيادته الكثير من الحكمة، ولكننى لا أجد من بينهم الآن من يرغب فى أن ينوب عنى بتحمل المسئولية. وبمعنى آخر، هل يمكننى أن أبحث عن بقعة أخرى على سطح هذا الكوكب أتحرر فيها من مسئولية قطيع الذئاب، وإنى أعى جيدا أن هذه الأفكار إنما هى خيانة كبيرة لسمعتى بوصفى ذئبا، ولكن هل كان هناك من سألنى حين ولادتى إن كنت أرغب فى أن أكون ذئبا، بل وأكون قائدا لقطيع الذئاب أم لا؟ وهناك من يعترض على سؤالى هذا قائلا: لماذا لا تقدر الحياة التى نعمت بها وقد كنت أوفر حظا من غيرك من تلك الذئاب الكثيرة التى افترستها الحيوانات البرية بعد وقت قصير من ولادتها؟ بل وهناك من يسأل: وما الحياة التى تتطلع لأن تحياها أيها الذئب؟ وهل لك أن تفكر فى مثل هذه الأمور؟ وهل تفكر فى أن تصبح فيلسوفا؟ وغيرها من الأسئلة.

غير أن هذه الأحداث والأمور لم تؤثر فىّ أدنى تأثير، وكان ذلك النهر وعشقى له هو الوحيد الذى سيطر على قلبى وجعلنى أسيرا له، وربما أكون قد أحسست بهذا الشعور الجارف منذ ذلك اليوم الذى صادفت فيه علامة الصليب والقبر الصغير، ففى يوم من الأيام، وبينما كنت أسير بمحاذاة النهر أتفقد تلك المنطقة التى تخصنى وقطيع الذئاب الذى كنت مسئولا عنه، اكتشفت تغيرا واضحا يظهر على تلك الصخرة الموجودة فى عرض النهر.

وكنت أعرف هذه الصخرة معرفة جيدة، بما فى ذلك عدد الأعشاب التى كانت تنمو على سطحها، وقد تأكدت من وجود علامة صليب أعلى الصخرة، وإلى أسفل الصليب يظهر قبر صغير، ومن المستحيل أن يكون هذا القبر الصغير يخص إنسانا، فهل من المعقول أن يكون قبر الإنسان بهذا الحجم الصغير؟ نعم، لقد كان القبر صغيرا للغاية حتى إن مياه النهر كانت تشعر تجاهه بالشفقة وتأبى أن تصطدم به، وكانت فقط تداعبه مداعبة بسيطة.

وليس من المهم بالنسبة لى أن أعرف لمن هذا الصليب والقبر الصغير، ولكن الشىء الأهم الذى يجب أن أستوضحه هو هل ستكون لنا ـ نحن معشر الذئاب ـ بعد موتنا شواهد وقبور مثل هذا القبر الصغير؟

وقد كنت أنمو وأتقدم فى السن إلى جانب ذلك النهر وألاحظ أثر الفصول الأربعة وتعاقبها على صفحة مياهه، وما يحدثه فيضان مياهه من أثر يهز الأرض وما عليها.

وكان لصوت مياه النهر عظيم الأثر الواضح على قلبى، فلطالما هدأت من روعى وغسلت روحى مما علق بها، ولكن هل تمتلك الذئاب أرواحا؟

وقد جعلتنى مياهه أرى وسط هذا العالم الوحشى صورة أخرى لعالم تغمره السعادة. نعم، لقد كان لهذا النهر عظيم الأثر على حياتى كلها.

ولقد كانت هذه البقعة من أهم البقاع التى ارتاحت لها روحى، وبالطبع إننى لا أقصد ذلك الصليب والقبر الصغير.

ولا أعرف إن كنتم أدركتم قصدى أم لا؟

غير أننى اكتشفت فجأة روعة الموت!

ولكن متى ظهر هذا الصليب أعلى تلك الصخرة؟ لقد مررت من هنا منذ وقت قريب ولم أرَ هذا الشاهد، إنه يبدو وكأنه سقط فجأة من السماء إلى هذه الصخرة، ترى هل هى إشارة من أسلافى لتنبيهى إلى حقيقة ما؟ وهكذا مضيت أفكر فى هذا الأمر فترة من الزمان، وهنا بدأ رأسى الذى كان دائما ما يكون إما مطأطأ أو مهموما بدأ يرتفع رغما عنه.

وظهر أمامى طائر أسود اللون ذو منقار طويل، ووقف أعلى الصخرة غارقا فى تأملاته، ترى هل يتذكر شيئا ما أم أنه يشعر بالأسى بتفكيره فى حقيقة الموت؟

وبعد ذلك كنت كثيرا ما أرى ذلك الطائر وهو يقبع أعلى الصخرة، وكان على الدوام هو نفس الطائر، لم يتغير قط، ولم أره فى يوم من الأيام يشدو مثل غيره من الطيور، وكان يبدو لى غارقا فى تأملاته، تُرى يشعر بما أشعر به ويحتاج لمن يبث إليه شكواه ويكشف له أسراره؟

ولا يغرنك أننا ـ معشر الذئاب ـ نبدو فيما بيننا أكثر تماسكا من غيرنا من الأحياء الأخرى، فإننا فى الحقيقة لسنا متلاحمين ويصعب علينا التواصل فيما بيننا، ويكاد لا يعرف أى منا الآخر معرفة كاملة، حتى صوت العواء الذى نفضله جميعا، فلتحاول أن تسأل أيا من الذئاب يعرف سبب عوائى الآن؟

كما أن هؤلاء البشر الذين هم مستعدون دائما لإبادتنا، هم فى الوقت ذاته يسعون إلى مجاملتنا وكسب ودنا ببعض الجمل الشاعرية التى يصفوننا بها قائلين: فى ليلة ما وتحت ضوء القمر الساطع، سُمِع صوت عواء ذئب. وهذه هى الصورة النموذجية التى يتداولونها عنا معشر الذئاب.

فما مدى معرفتهم بنا فضلا عن هذه الصورة التى تنتشر فى كل مكان؟ وكم من التفسيرات التى قدموها بشأن عواء الذئاب؟ وإن كنت أعتقد أنهم إنما يقصدون بهذا تفسير أنفسهم!

وإن هؤلاء البشر لا يعرفون أننا نمضى معظم وقتنا وسط البرية والجبال نعوى فى ظلمة الليل البهيم، ولكم نعشق هذا الليل وظلمته!

وعلى الرغم من عدم وجود فروق جوهرية بين الليل والنهار، فإننا نؤمن بأن الليل يقف حاجزا بيننا وبين جميع الكائنات، وأنه يخفى الكثير من الأشياء، وأنه يساوى بين جميع الأشياء ولا يفرق بين هذا وذاك وبين كبير وصغير، وتخضع جميع الأشياء والعوالم التى تفضلها أو لا تفضلها لظلمة الليل، حتى إنه يوهمنا بسهولة مواجهة هذا العالم، وإننا أيضا نشعر بحريتنا فى ظلمة الليل أكثر مما تكون عليه فى وضح النهار.

وأكاد أشك فى أن أذنىّ مصابتان بمرض ما: فمنذ ولادتى وأنا أحس بأن هناك صوتا غير واضح يتردد صداه على مسامعى ليل نهار، غير أنى لا أفهم حقيقة هذا الصوت، فربما كان صوتا ينبع من داخلى. ولكن للأسف فإنه يصعب علىّ تحديد معالم هذا الصوت أو حتى تكراره، بل إننى أثق بأن نبرة هذا الصوت بعيدة كل البعد عن صوت عواء الذئاب. لا، لا تحسب أننى لم أحاول الاقتراب من هذا الصوت وفك شفرته، فقد حاولت مرارا أن أقلده، وكانت النتيجة أننى أجده صوتا مغايرا لصوتى وصوت غيرى من الذئاب. وقد جعلنى هذا الأمر أشعر بخيبة الأمل والأحزان التى تترتب على الشعور بخيبة الأمل، غير أننى كنت أتوقع هذا الشعور.

ولا يكاد هذا الصوت يفارقنى، فهو يصاحبنى أينما ذهبت بل ويرشدنى إلى بعض الأمور، فتارة يجعلنى أجرى وسط البرية كالمجنون، وتارة أخرى يوقفنى دون أسباب، وتارة ثالثة يجعلنى أهيم

فى عالم الأحزان، وإننى أثق بأنه لا يوجد على سطح هذا الكوكب ذئب آخر يشاركنى هذا الكم من الأحزان.

ولم يكن هذا الصوت بهذه القوة فى صباى، فقد ازداد قوة ووضوحا مع تقدم عمرى.

كما أن لدىّ رغبة قوية فى معرفة أصل هذا الصوت، وها أنا أخدع نفسى وأقنعها بأن هذا الصوت إنما ينبع من هناك؛ حيث أسلافى الأوائل.

فالبشر يعرفون أن جميع الكائنات والأشياء تكون فى حالة حركة وقت اكتمال القمر، غير أنى أعلم بأنه عند اكتمال القمر تسود الدنيا حالة من السكون، كما أن القمر يتمتع بقوة سحرية تفوق بكثير قوة الشمس، وإنه ربما بإمكانه أن يساعدنى فى استعادة روح أسلافى.

ويرجع السبب فى تلك القوة التى يتميز بها عوائى إلى أنى دائما ما أشعر بأن هناك خلف هذا القمر ممرا خفيا، بإمكانه أن يساعدنى على التواصل مع أسلافى، كما أننى أثق بأن أسلافى يمكنهم من خلف هذه الجبال والوديان أن يميزوا صوتى من بين أصوات قطعان الذئاب.

وفى الحقيقة، إننى أقصد بعوائى التوسل إلى القمر، أتوسل إليه أن يمنحنى مساحة ولو بسيطة تجعلنى أتمكن من الوصول والسير فى ذلك الممر الخفى، نعم أسير فيه ولو للحظات قليلة، لحظات

تمكننى من أن أطرح سؤالى: "من أين أتيت؟" ولماذا أتيت إلى هنا، وتكاثرت فى هذا المكان؟ هل كان سبب وجودى فى هذه الحياة هو البحث عن إجابة لهذه التساؤلات التى تحيرنى؟

وإننى أركز تركيزا شديدا، وخاصة فى تلك الليالى القمرية، وأثق بأنه لا يوجد فى هذا العالم صوت حيوان آخر بإمكانه أن يشدو بصوت يهز القلوب مثل صوتى القوى، اللطيف المتعرج، الحزين، المتناغم الذى يطرى القلوب، الملىء بالهموم.

غير أنه مهما اجتهدت فى العواء، فإن القمر لم يمنحنى قط شعاعا من الأمل للسير فى ذلك الممر الخفى، ولم أتوصل لأى خيط يساعدنى على التوصل إلى أسلافى، وهكذا تبدو عيناى المغمضتان ممتلئتين بالكثير من خيبة الأمل والحزن الدفين.

ولتفكر معى فى أنه خلال التاريخ الطويل من الممكن أن يكون قد تم طمس جميع المعلومات الخاصة بذلك الممر ومحوها وتغييرها، كما أنه لا يوجد فى هذا العالم أية قوة بإمكانها أن تخترق الزمن، ذلك الذى يبدو شيئا بسيطا غير أنه قوة هائلة يصعب اختراقها.

ومن المعروف أن العمر يمر بالكائنات مرورا سريعا لا يجعلها تشعر به، ويكون من الصعب تعطيله أو ملاحقته، غير أننى لا أزال على حالتى أعوى، وكأننى وجدت فى هذا العواء ذلك الشىء الخاص الذى يهون علىّ الكثير والكثير.

وعلى الرغم من ذلك، فإننى لا أزال مطمئن النفس مرتاح البال، فهل يمكن أن تعود السنون وتبحث عن ذلك الذى ضاع منها؟ ولكننى لم أفكر فى هذا الأمر مطلقا، فحتى ولو عادت السنون، فإنه ربما لن تستطيع العثور على ذلك الذى ضاع منها عبر رحلة الزمن.

وأخيرا سنحت لى الفرصة؛ ففى يوم من الأيام وبعد نجاحنا فى الفرار أثناء مطاردة أحد الصيادين لنا، ظهر أمام أعيننا فجأة جرف شاهق، وكانت المسافات التى تتخلل ذلك الجرف عميقة للغاية، حتى أدركت تماما أنه من الصعب تخطى مثل هذه المسافات العميقة. وكان ذلك الجرف الشاهق والوديان العميقة الوعرة التى تتخلله تبدوان وكأنهما تكونا من تلال من الكرات الثلجية التى تساقطت خلال فصل شتاء كامل، وكانت هذه التلال الثلجية الكثيفة تبدو وسط هذا الجو تكشف عن جمالها ووداعتها وهى تسر الناظرين، نعم كانت تبدو وكأنها قطعة من الفردوس أعدت لنا ـ معشر الذئاب ـ لنستمتع بجمالها الخلاب. ولكننى كنت أعلم أن أسفل هذه التلال الثلجية تختفى قمم صخرية حادة مثل السيوف القاطعة، وأننا إذا لم نكن فى غاية الحذر من الانزلاق أعلى هذه التلال الثلجية، فإن رءوس القمم الصخرية ستتغلغل داخل أجسادنا وتخترق عظامنا. إن هذه القمم كانت تبدو مثل الكمائن التى ينصبها لنا بعض الصيادين، وحيث كان هؤلاء الصيادون يقومون فى فصل الشتاء القارس بوضع بعض السيوف الحادة ويدهنونها بدماء

الخنازير والأبقار والأغنام، حتى تتحول هذه الدماء فى هذا الجو شديد البرودة إلى طبقات من الثلج، فيقومون بإعادة دهنها مرات ومرات، حتى تتحول هذه الطبقات الثلجية إلى كرات من الدماء المتجمدة، ثم يقومون بغرس السيوف الحادة فى هذه الكرات المتجمدة. ولا شك أن هذه الكرات الثلجية المخضبة بالدماء تكون لا تزال تحمل بعض الإغراء لنا ـ معشر الذئاب ـ الذين نتمتع بذكاء حاد وحاسة شم قوية، وحيث كنا نتجمع معًا وننقض على هذه الكرات المخضبة بالدماء، ونمضى نلعقها بألسنتنا حتى تذوب الكرات المتجمدة وتظهر تلك السيوف الحادة المنغرسة فى هذه الكرات المتجمدة. وكنا نمضى وقتا طويلا جدا فى لعق تلك السيوف حتى بدأت تسيل الدماء بغزارة من ألسنتنا، حتى سالت كل دمائنا وسقطنا مغشيا علينا فى انتظار من يأتى لذبحنا.

وربما لا يكون هذا الأمر ذنب هؤلاء البشر، حيث إنهم يسعون مثلنا للبحث عن المأكل والمشرب اللازمين لحياتهم. أليس كذلك؟ وألسنا معشر الذئاب ـ قد نقوم فى بعض الأحيان بالهجوم على بعض الحيوانات الأضعف منا وقتلها. فلابد أن تعلم جيدا أن هذا العالم الذى نحيا فيه إنما هو عالم تسوده شريعة الغاب، حيث أصبح الضعيف فريسة سهلة للقوى، وعليك أن تثق بأنه فى عصر أسلافى الأوائل لم يكن هناك أى سيوف حادة تختفى أسفل الكرات الثلجية، وحيث كانت وسيلة انتقال هؤلاء الأسلاف من هذا العالم

إلى العالم الآخر هى إما الموت أو القتل الذى يصيبهم من قبل تلك الحيوانات الأشد افتراسا من الذئاب، فقد كانت طرق انتقالهم إلى العالم الآخر بسيطة وواضحة.

غير أنه فى الوقت الحالى أصبح من الصعب جدا أن يجد أحد الذئاب مثل هذه النهاية السهلة الواضحة.

وفى يوم ما، سقط أحد الذئاب بسهم من سهام الصيادين، حتى إنهم كانوا فى غاية السرور وراحوا يقلدون عواءنا، وإننى لا أعرف السبب الذى يجعل البشر سعداء هكذا بعد قتل أحد الذئاب، حتى إن الصيادين لا يتوقفون عن مطاردة المزيد من الذئاب وصيدها. وإننى أخمن أن السبب فى نجاحهم فى التغلب علينا فى هذا التوقيت تحديدا، أننا لا نستطيع الحصول على الطعام الكافى وتضعف قدرتنا على المقاومة والفرار، بالتالى نصبح فريسة سهلة لهم، وإننى أعلم جيدا المكان الذى يمكن أن أجد فيه مخبأ يمكننى من النجاة من هؤلاء، ولكننى قد تخليت عن القيام بمهامى بوصفى قائدا لقطيع الذئاب، وسأسارع بالفرار فى اتجاه آخر. وذلك لأننى أعلم جيدا أنه فى تلك اللحظات الحرجة بسبب غيابى عن قيادة القطيع، ستقوم أنثاى بالنيابة عنى، وأنها ستبدى من المهارة والذكاء الشديد وستنجح فى النجاة بقطيع الذئاب من الخطر المحدق بهم.

وإن إنثاى بالطبع سوف تنظر إلىّ نظرة احتقار، وستعلن ندمها على الارتباط بذئب مثلى. ولكننى قد وصلت إلى مرحلة متقدمة لا

يهمنى فيها النظر إلى مثل هذه الأمور، أليس وصولى إلى هذه المرحلة يعنى أننى قد دخلت فى نفق مظلم؟

ولو رجعنا بالتفكير خطوة إلى الوراء، فإنه يمكن القول بأنه حتى ولو كانت أنثاى رفضت أن تحل محلى بوصفى قائدا لقطيع الذئاب، فإنه بالطبع كان سيبادر إلى هذا المنصب أحد الذئاب الذين يتمتعون بقوة وذكاء شديدين، ولا شك أن هذا الأمر فى شئون القيادة تستعد له جماعات الذئاب قبل انتهاء فترة القائد الحالى لأى قطيع، وإننى لست قلقا على الخسائر التى سيواجهها قطيع الذئاب من بعدى. حيث إننى أعتبر هذه الحادثة فرصة طيبة لى لأن أتراجع عن قيادة قطيع الذئاب. وعلى الرغم من أننى أعرف أنه لن يبادر أى من الذئاب فى جماعتى لأن يقوم بدور القائد، ولكننى أرى أن أفضل طريقة أمامى هى الفراق، ففى مثل هذه اللحظة الحرجة سيبادر قطيع الذئاب باختيار أحدهم ليتولى مهام القائد لكى لا تتوقف الحياة. وإننى لم أسع إلى الاختفاء من قطيع الذئاب، وحيث يمكن لأى من الذئاب من جماعتى أن يرانى ويصل إلىّ بسهولة، حتى إننى أحاول أن أساعدهم فى التأكد من أننى لم أصب بأى مكروه، ولم ينجح أى من الصيادين فى النيل منى، ولم تنزلق أقدامى أعلى الجرف الشاهق. ولكن لم يشغل أى من الذئاب نفسه بالتفكير فى أمرى ولو لحظة واحدة، نعم، حتى ابنى الوحيد لم يشغل نفسه بالتفكير فى مصيرى، حتى زوجتى لم ترجع وتنظر

إلىّ نظرة الوداع، غير أننى لم أشعر بالحزن بسبب ذلك؛ حيث إننى أعلم جيدا أن لكل اختيار فى هذه الحياة مبرراته.

وبعد أن رأيت جميع أفراد قطيع الذئاب التى تخصنى، والذين لم أكن قد فكرت فى فراقهم لحظة واحدة، بعد أن رأيتهم جميعا اجتازوا بسلام ذلك الجرف الشاهق، قفزت بسرعة ورحت أنظر إلى ذلك النهر، ورأيت أيضا هؤلاء الصيادين قد تخلفوا ورائى ولم يتمكنوا من اللحاق بقطيع الذئاب. وهكذا ودون أدنى شعور بألم الفراق، افترقت عن جماعتى، وقد كنت فى غاية السعادة لأننى بلغت بعد انتظار طويل هذا اليوم الذى أصبحت فيه أملك حريتى وأصبحت محررا من جميع القيود التى كانت تكبلنى. وأعتقد أن هذا اليوم لم يأت متأخرا، نعم، يكفينى أننى أخيرا بلغت هذا اليوم الموعود. ورحت أقفز هنا وهناك فرحا بحريتى، ورحت أعيد النظر مرارا وتكرارا فى تلك الغابة والجبال المحيطة بى؛ لكى أتعرف جيدا على هذه البقعة التى كانت غريبة علينا معشر الذئاب. وكنت أجرى وأمرح هنا وهناك، وكان مجرى النهر بالطبع أفضل الأماكن التى كانت تجذبنى إليها. وفى ذلك اليوم وبينما كنت أركض كعادتى، سمعت صوت طلق نارى كان على مسافة قريبة جدا منى.

وبعد أن ابتعد صوت الطلق النارى، والذى كان قد حطم ذلك السكون والهدوء الذى كان يلف هذا المكان الذى أقيم به، والذى يصعب على أى إنسان الوصول إليه.

قد استطاع هذا الصوت القوى المدوى أن يمزق قلبى تمزيقا شديدا، حتى بدت أشلاء قلبى كقطع صغيرة تتناثر هنا وهناك. وكنت أعرف هذا الصوت جيدا، وكنت أعرف أنه سيعقبه دماء ونهاية حياة. وأن بعض إخوتى وأخواتى وأقربائى سيفقدون بعده القدرة على الحركة والنهوض، وكنت أستطيع أن أشم جيدا رائحة الدماء التى تعقب الطلق النارى. وبعد وقت قصير، انشغلت بتتبع الرائحة التى أشمها، وتمنيت من أعماق قلبى ألا تكون رائحة دماء أى من الذئاب.

نعم إن القتيل ليس ذئبا، إنه إنسان، ملقى هنالك أعلى كومة من الثلج. ومن الواضح أنه أصيب بجرح خطير، وها هو ملقى هنالك وحيدا ينزف بغزارة، ولا أعرف لماذا لم يبادر بإطلاق أى صوت يعبر عن آلامه والحالة التى أراه عليها، إنه قد اكتفى بأن يحبس الشعور بالألم بين جفنيه فقط. ترى ماذا ينتظر؟ هل ينتظر الموت؟

وهل يوجد على سطح هذا الكوكب أحياء يتطلعون إلى فراق هذا العالم أكثر منى؟

وعلى مسافة قريبة من ذلك الجريح، كانت هناك بندقية صيد ملقاة على الأرض.

تُرى هل هذا الحادث نزاع مسلح؟ أم تراه مجرما هاربا؟ أم أنه اغتاله غيره من بنى البشر؟ أم أنه حادث انتحار.

وإذا استطاع هذا الجريح أن يحرك ذراعه قليلا، فإنه سيمكننى الحصول على البندقية الملقاة على مقربة منه.

وكنت لا أعرف لماذا كنت أردد مع نفسى كلمات: فلتتحرك، فلتتحرك قليلا.

وهنا انتبه الرجل إلى وجودى، وقد بدت عيناه المليئتان بالحزن ترسلان شعاع الإحساس باليأس، فمن المؤكد أنه كان يفكر بأنه حتى ولو استطاع أن يتخلص وينجو من تلك الرصاصة التى أصابته، فإنه لن يفلت من أنياب الذئب.

وفى الحقيقة إننى لم أقم بأى حركة تزيد من خوف ذلك الجريح، فقط اكتفيت بالاقتراب منه والنظر إليه، وبدت عيناه غير مستقرتين وهما تتابعاننى أينما ذهبت، فمن المحتمل أنه كان يفكر فى سؤال مهم يحيره، وهو أنه لماذا لا ينقض عليه هذا الذئب ويلتهمه فى الحال. وبالنظر إلى تعبيرات وجهه، فإنه يمكننى أن أستنتج أنه لم يكن يوما يتطلع إلى الموت الذى ينتظره الآن، ولكن من يدرى أن الذى يظهره الآن أمامى على العكس تماما مما يخفى فى داخله. فإذا انقضضت عليه بقضمة تنهى حياته، فإن ذلك يعتبر ميتة مفاجأة له، ومن الممكن أن تكون نهاية ترضيه؟ حيث لن تترك هذه النهاية فرصة لغيره من بنى البشر أن يبحثوا عن أسبابها، وهل هذه النهاية تخلو تماما من أمور جديرة بتقصى أسبابها؟ إنه حتى

فى لحظات تعرض حياته للخطر لم يتخل عن عدائه لنا وللحياة، نعم إنه يكن لنا العداء والكره والخوف والرفض والقلق الذى يخلو من أى مبررات. وقد أصابنى هذا الشعور ببعض اليأس، إننى لا أعترض على هذا الخوف، ولكن كنت أتمنى أن يقرر خوفه منا من عدمه بعد تعرفه علينا معشر الذئاب، ففى ذلك الحين سيكون خوفه منطقيا ولا أحد يعارضه فيه، غير أن خوفه منا كان بناء على أفكار مسبقة فحسب.

فلماذا يبدو هؤلاء البشر الذين يعرفون جميع الأمور هكذا؟

وفضلا عن ذلك كله، فقد لمحت فى عينيه نوعا من الكره الذى يخلو من أى مبررات، ولكننى لا أعلم كيف يخفى فى نفسه كل هذا الكره. غير أنه فى هذه اللحظة الحرجة التى تتعرض فيها حياته لخطر شديد، لم يكن ليستطيع أن يرفض اقتراب ذئب منه، ولم يكن لديه فرصة لأن يفكر فى مدى خطورة اقترابى منه، فبالنسبة له فإن حياته قد شارفت على النهاية إما بانقضاضى عليه أو من كثرة النزيف. ورحت أقترب منه أكثر فأكثر وأشم رقبته. نعم، يبدو أنه من السهل أن أنقض عليه وأنهى حياته فى الحال، فقط يحتاج منى الأمر إلى أن أفتح فمى وأقبض على رقبته بين فكىّ، ثم أُعمِل أنيابى حتى تحوله إلى قطع من اللحم أملأ بها معدتى الخالية. غير أننى لم أقدِم على هذا الأمر. نعم، لم أفعل هذا معه على الرغم من أنه - أو ربما أنه - كان قد قتل من قبل إخوتى وأخواتى وأقربائى

وأصدقائى. إن عددا كبيرا من الذئاب لن يدع مثل هذه الفرصة السهلة تضيع منه، لكن هذه لم تكن عادتى قط، وربما يكون هذا هو الاختلاف الذى يميزنى عن غيرى من الذئاب.

ولم يكن ذلك الإنسان الجريح تلك الوجبة التى أنتظرها، ولكنه يعتبر ذلك "الآخر" الذى أتطلع إلى دراسته منذ زمن بعيد. ويجب أن تصدقنى فى هذا الأمر، بأننا ـ معشر الذئاب ـ نتمتع بالقدرة على مراقبة الأشياء وتحليلها والتحقيق منها. ألا تعرفون بأن الكلاب قادرة على فهم الإنسان وأنها أوفى الأصدقاء له؟ ولكنها تعتبر أقل درجة منا معشر الذئاب. وإنك إذا حاولت البحث عن أصل هذه الصفات عند الكلاب، أليس مرجعها إلينا معشر الذئاب؟ ولن ينطبق عليهم ذلك المثل القائل بأن التلميذ يتفوق على أستاذه، نعم لن يستطيع تلاميذنا أن يتفوقوا علينا، وهل تعلم تلك القصة التى تحكى أن النمور قد بايعت القطط لأن تكون معلمة لها، فهكذا احتفظت القطط لنفسها ببعض الأسرار.

ومنذ زمن بعيد وأنا أتطلع إلى فرصة أقترب فيها من بنى البشر، ولدىّ حب استطلاع عميق تجاههم وخاصة فيما يخص ماذا يكون رد فعلهم أثناء مواجهة مصير الحياة والموت؟ وربما سيساعدنى ذلك على إدراك بعض الأمور، ولكننى لم أحصل على هذه الفرصة من قبل، ففى كل مرة كنت أتقابل فيها مع الإنسان، إما أنه كان يبادر بالهروب من أمامى أو أننى كنت أهرب خوفا من لقائه.

واقتربت من ذلك الجريح، ورحت أشم رائحته، نعم إنها رائحة إنسان.

وبدت لى هذه الرائحة مختلفة تماما عن تلك الرائحة التى كنت أشمها من قبل عن بعد، يبدو أنها قد فقدت الطعم والمذاق الطبيعى والخالص للحياة، وأنها تشبعت برغبة غير واضحة، وهل هذه الرائحة هى رائحة هذا الجريح أم أنها رائحة جميع البشر؟

ثم رحت أزحف إلى جانب جسده بهدوء ملحوظ، دون أن أتسبب له فى أى تهديد يرعبه.

وبدا لى أن الأمل فى الحياة لدى ذلك الإنسان قد بدأ يتضاءل لحظة بعد لحظة، ورأيت أنه يرغب فى أن يقول شيئا ما، ولكن ليس أمامه الآن سواى، وهل يستطيع الإنسان التواصل مع ذئب مثلى؟ فى الحقيقة إنه لا يعرف أنه حتى ولو لم يتفوه بكلمة واحدة، فإننى أكثر قدرة من بنى جنسه من البشر على معرفة ما يدور فى رأسه.

ولحسن الحظ، كان بإمكانى فى تلك اللحظة أن أستخدم أذنىّ. وهل يوجد أهم من أذنىّ يمكن أن ينقل الكثير من المشاعر العميقة؟ ومن ثم فقد وجهت أذنىّ تجاهه ورحت أدعوه بها، حتى إننى وددت لو أعانقه بأذنىّ، ولكنه أشاح بوجهه عنى. وفى الوقت الذى كنت أجتهد فيه لكى أتوصل إلى طريقة تجعله يدرك نيتى الطيبة، إذا بأساريرى تكشف عن ابتسامة خفيفة. ومن رأى من قبل ابتسامة الذئب!

وبعد ذلك رأيته وقد اطمأن بعض الشىء، وربما كان السبب فى

ذلك ابتسامتى التى جعلته يدرك أننى لا أضمر له العداء، وفى الحقيقة إننى كنت أتمنى منه هذا الشعور منذ وقت طويل. وأعتقد أنه بالتأكيد لم تتح له فرصة الاقتراب من ذئب من قبل، وأنه قد استطاع الآن أن يرى عينىّ بوضوح، ويدرك ما تخفيه من حزن وشفقة وود، ويبدو أنه فى تلك اللحظات القليلة قد فكر فى أن يقترب منى، وأنه قد فكر فى محاولة إنقاذى له، فبغض النظر عن كونى ذئبا، فإننى لا أتردد فى الحكم بأهمية حرص أى كائن على حياة كائن آخر على سطح الأرض.

ولكن يبدو أن حاله الآن قد شهد تغيرا كبيرا عما كان عليه منذ قليل، ويبدو أنه لم يعد ينتظر الموت وهو مكتوف اليدين، إنه الآن يبدو وكأنه يفكر فى أى طريقة تساعده على النجاة، ويمكن القول إن مودتى وصداقتى اللتين أظهرتهما له كانتا السبب فى إيقاظ رغبته فى الحياة.

وكان من الواضح أنه كانت لديه رغبة قوية فى الحياة، الأمر الذى جعلنى أشعر بالدهشة والاستغراب: فهل تستحق الحياة كل هذا؟ لا، إنها بالتأكيد حياة غريبة وبعيدة كل البعد عن حياتى.

وبالطبع كنت أرغب فى مساعدته ما دام بإمكانى أن أفعل ذلك، غير أننى كنت أعلم أنه حتى ولو أننى نجحت فى إنقاذه، فإنه لن ينجو من الموت، فإن هذه الرائحة المنبعثه من جسده تشير إلى أن جثته تسير فى طريق الموت والتعفن، ولن أقدر أنا أو حتى أى قوة

أخرى فى هذا العالم على وقف هذا التعفن، ولكننى لا أعلم إن كان قد أقدم على الانتحار أم أنه تعرض للقتل من قبل آخرين.

ومن خلال التفكير فى أمر هذا الإنسان الجريح، فإنه يمكننى أن أؤكد أن تاريخه كان تاريخا فاشلا، وإلا فلماذا هو الآن ملقى أمامى، إما بسبب طلقة من إنسان آخر أو بسبب طلقة أراد أن ينهى حياته بها، وعندما تلتقى عينانا، فإننى أشعر بأنه يعرفنا نحن الذئاب، غير أن هذه المعرفة إنما قد جاءت متأخرة وستنتهى سريعا، وإنه لن يرجع إلى مجتمعه بأى معلومات عنا معشر الذئاب.

ومن ثم فإننى أعتبر الفائز فى هذه الجولة.

وهل تصدق أننى لا أرغب أن أكون الفائز دائما؟

غير أن مزاجه فى تلك اللحظات كان يغلب عليه الشك والحذر.

ربما كان السبب فى ذلك أننى كنت لا أتوقف عن النظر إليه.

وما دمت أستطيع معرفة ما يدور فى قاع النهر، فإنه يمكننى أن أعرف من خلال هذا الإنسان الجريح إجابة لهذا السؤال المهم، وهو: لماذا يرغب البشر دائما فى قتلنا معشر الذئاب؟ حتى ولو لم نكن نمثل عقبة فى طريقهم؟

وكان الهدف من سعيى إلى التوصل لإجابة عن هذا التساؤل، رغبة منى فى معرفة ولو مبرر واحد لهذا الأمر، نعم مبرر واحد فقط من الممكن أن يقنعنى بإقدامهم على قتلنا.

ومن ثم، فقد راح ذلك الرجل يرهق نفسه من جديد فى تخمين نيتى من الوجود إلى جواره، وفى الحقيقة أنه لن يستطيع أبدا معرفة سبب وجودى هنا، وأن وجودى إلى جواره ليس له أدنى علاقة بما يفكر فيه، وقد رأيت أن عينيه ترومان إلى بندقية الصيد الملقاة إلى جانبه، وقد فكرت فى نيته من النظر إلى البندقية، وفى الفترة بين المسافة التى تمكنه من الحصول عليها، ورفع هذه البندقية وتصويبها نحوى، وبالطبع إنه كان يقدر الفترة التى يقوم خلالها بهجومه، والفترة التى من الممكن أن أستغرقها فى النهوض والانقضاض عليه، وفى النهاية تأكد من أنه لا يستطيع تقدير هذه الفترة الزمنية أفضل منى، وقد أدركت للتو الأهمية الكبيرة لتلك البندقية بالنسبة له، فإنها ليست فقط من الممكن أن تساعده على التغلب على خوفه وقلقه منى، بل إنها السند الوحيد له.

ومن ثم فقد استخدمت قدمىّ وفمى وقمت بتحريك البندقية حتى أصبحت فى متناول يده، ولم أكن أبالى بالذى سيفعله بعد أن يحصل عليها، وكنت فقط أفكر فى أن أساعد ذلك الإنسان الذى ربما يولى الحياة أكبر قدر من اهتمامه، أساعده على أن يحصل على قدر من الأمان قبل أن يفارق هذا العالم، ولكن الإنسان هذا المخلوق لابد وأن يدرك مدى حاجته إلى الاعتماد على الحيوانات التى تعيش معه على سطح هذا الكوكب، ولكنه لم يكن يدرك الغرض والدافع الحقيقى الذى كان وراء مساعدتى له بتقريب

البندقية وجعلها فى متناول يده، وكان يتخفى منى بحذر وخوف وكأننى كنت أضغط على زناد البندقية لأنهى حياته، آه من هذا الإنسان المسكين، ألم يخطر على باله فكرة أفضل من هذه الفكرة؟

لا، لم يكن جسده الذى كان يتخفى منى، فلم يكن يقوى على الحركة. إنه وعيه وعزيمته، وغيرها من تلك الصفات السامية التى كنت أظن أننا ـ معشر الذئاب ـ لا يمكن أن نتحلى بها، وها هى الآن تنهار أمام عينى. غير أنه لا يستطيع أن يخفى رغبته فى الحصول على تلك البندقية، وبمعنى آخر رغبته فى قتلى، ومن المؤكد أنه لم يفكر فى السبب الذى دفع ذئبا مثلى لأن يقوم بما قمت به، وأنه كان يعتقد بأن الهدف من هذا بالتأكيد هو رغبتى فى القضاء عليه!

وفى الوقت الذى كانت تنهار فيه قواه رأيت "الإنسان"، بل استطعت التعرف على أمراضه، والتعرف على سبب قتله أو انتحاره، وأدركت أن البشر يقبلون على قتلنا دون أى مبررات فرحين بما يفعلون، وإذا كان لابد وأن أشير إلى المبررات، فإنه ذلك المبدأ الذى يؤمنون به: "حياتى مرهونة بموتك"، فإنهم ليسوا مثلنا معشر الذئاب، ففى عالمنا نعيش فى كل وقت وحين، إلى جانب الكثير من أنواع الحيوانات الأخرى، حتى إنه فى بعض الأحيان قد نشرب من نهر واحد، وإننا إذا كنا مثل الإنسان بإمكاننا أن نزرع الحبوب ونقوم بطهى الطعام، لما هاجمنا وقتلنا كائنات أخرى بسبب الجوع والعطش حفاظا على حياتنا.

ففى حياة الذئاب تجد القسوة والصراع والدم وشريعة الغاب، ولكن لن تجد الخسة والدناءة والجشع والظلم والوضاعة... وأخيرا أدركت أنه لا يوجد فى حياة البشر ما يستحق أن أجهد نفسى بالبحث عنه، فهذا هو الفارق الكبير بين حياتنا معشر الذئاب وحياة هؤلاء البشر، وربما أكون قد تحاملت عليهم وربما يمتلكون الكثير من الأخلاق الحميدة التى لن أستطيع فهمها، ولكن الوقت الذى نحن فيه حرج للغاية، إنه الوقت الذى يظهر فيه الجوهر، نعم إنها لحظات عظيمة، لحظات اختزلت جوهر هذا الإنسان. ثم رأيت بعد ذلك الفم الذى لم أكن قد انتبهت إليه، وعندها استوضحت أنه فم يتحدث بالحقيقة والنفاق، أما عن وجهه فإنه قد جعلنى أفقد الرغبة والمتعة وأعترف بأننى لن أستطيع فهم هذا الوجه طيلة حياتى.

وفى ذلك الوقت، سمعت عواء ذئاب قادما من مكان بعيد فانتفضت من جانب ذلك الرجل، ورحت أركض تجاه مصدر الصوت، ولكننى توقفت فجأة، حيث عرفت أن تلك الذئاب التى تعوى ليست هى قطيع الذئاب التى أنتمى إليه.

ومن ثم فقد جلست ومضيت أفكر: هل أذهب لرؤية تلك الذئاب أم لا؟ وفى النهاية قررت أن أركض نحو تلك الذئاب، فبغض النظر إن كانوا ينتمون إلى جماعتى أم لا، فإنهم ذئاب مثلى وإنهم أجدر بالفخر من الإنسان، فجريت نحو مصدر الصوت وسط البرية،

وهناك شممت تلك الرائحة التى أعرفها تمام المعرفة، وفجأة سمعت دوى طلق ناري، وفى الحقيقة إنه كان صدى طلق نارى مر من جانبى واهتز له جميع ما حولى.

ولم تكن تلك الطلقة طلقة فارغة، فقد اهتز لها جسدى بقوة. وكنت أعلم بأن تلك الطلقة كانت تقصدنى أنا، وهذا ما كنت أحتاج إليه لكنه لم يتحقق، إن ذلك الرجل الجريح أخيرا صوب نحوى آخر طلقة يطلقها فى حياته، إنه لا يزال يأبى أن يعفو عنى، وأنا الذى أبديت له الود وحاولت التواصل معه.

فهل كان يفكر فى أننى سأعود إليه وألتهمه بقضمة واحدة؟ وذلك حتى بعد أن ساعدته وجعلت البندقية فى متناول يده ولم أتسبب له فى أى خطر يهدده؟ إنه لم يكن يفهم أننى أترفع عن أن أسدّ جوعى بمسكين مثله.

فالجميع يحكى عن قسوتنا نحن الذئاب، فماذا عن هؤلاء البشر؟

فقد تعرضت خلال مشوار حياتى للكثير من المواقف، كنت فيها بين الحياة والموت، ولعل أحد أسباب ذلك أننى كنت قائدا لقطيع ذئاب، غير أن هذه المرة تختلف عن سابقاتها؛ حيث إننى لا أبادر بالنضال من أجل الحياة.

إننى أحتقر هذا الإنسان، وأشعر بالعرفان نحو تلك البندقية، وأيضا نحو تلك الرصاصة التى خرجت منها وأسقطتنى طريحا.

فقد جعلتنى هذه الرصاصة أقطع علاقتى تماما "بالحياة" التى أصبحت أمقتها مقتا شديدا.

إلى اللقاء أيتها "الحياة"، إلى اللقاء الآن وفى المستقبل وإلى الأبد.

نعم إننى أشعر بالعرفان تجاه تلك الرصاصة، لقد منحتنى فرحة الفراق، وجعلتنى أعود إلى العالم الآخر، ذلك العالم الذى أعتقد بأنه أصل حياتى، فإننى أشعر بالعرفان تجاه تلك الرصاصة، لأنها كتبت نهاية حياتى.

وإننى أتمنى أن تنتهى حياتى وأنا بكامل قوتى، ولا أتمنى أن تنتهى وأنا شيخ هَرِم، أو عندما تتخلى عنى الذئاب وتلقى بى وسط البرية، أو كغيرى من الذئاب الذين يقدمون أجسادهم للقطيع حتى تستمر الحياة، وعلى الرغم من أن هذه النهاية ستكون نهاية سلسة لموت أى ذئب، فإن كل ذئب سينظر إليها على أنها مهمته الخاصة.

ولا أعرف إن كان هذا الشعور يعبر عن شجاعتى أم جبنى أم أنانيتى؟

وإننى أشعر بأن الموت يجب أن يكون طقسا مقدسا، ولكن كيف تكون قدسية الموت؟ إن هذه القضية تشغلنى كثيرا.

والتفت ورائى أنظر إلى وجه ذلك الرجل الذى يبدو شاحبا، ووجدته تظهر عليه علامات الطمأنينة والرضا، ولكننى فكرت فى أن ابتسامتى أكثر طمأنينة ووضوحا.

وكان جسدى يقفز بسرعة، بل يطير تحت تهديد تلك الطلقة.

إنها حقا بندقية جيدة، حتى إننى أرى أنها قادرة على قتل فرس النهر وجعله يطير خائفا مثلى، ولم أكن أتوقع أن جسدى الذى أوشك أن يفقد الحياة بإمكانه أن يطير ويقفز مثل هذه القفزات الجميلة، وقد كانت لدى الفرصة أن أنظر إلى قفزاتى التى استطعت أن أرسم بها لوحة جميلة أتركها فى هذا العالم الذى لا أحبه.

وقد تفرقت وتلاشت الآن جميع الأفكار والأحزان، وها أنا فى طريقى إلى ذلك العالم الذى سأتوحد فيه مع أسلافى، ولن أشعر بعدها بالوحدة والتشرد.

وقد ذابت الآن جميع الذكريات تماما كما يذوب الثلج فى فصل الربيع، فهل تركت أحفادا؟ فهل كان لى زوجات؟ وكم عدد هؤلاء الأحفاد؟ وكم عدد الزوجات؟ إننى لا أذكر شيئا من ذلك، وربما لم يكن لدى أى من ذلك، وإذا كان لدى، فلماذا لا يظهر أمامى الآن ولو طيف خيال منهم؟

فهل ذابوا وتلاشوا مثلما ذابت جميع ذكرياتى وتلاشت؟

ورأيت فى السماء البعيدة نسرا يحلق، وكانت أجنحته ترفرف فى عنان السماء، فلماذا يحق للنسور أو الطيور أن تغادر الأرض. وإن الأرض التى ينظرون إليها من سمائهم، حتما تختلف عن الأرض التى أراها، فإن المساحة التى نراها نحن الذئاب لا تتعدى عشرات الأمتار.

كما رأيت تلك المناطق التى كان أسلافى قد عاشوا فيها: أرض مليئة بالجبال والأشجار الخضراء والأزهار المتفتحة، أنهار صافية، إنها تلك الأرض التى عاش فيها أوائل الذئاب وأوائل الكثير من الحيوانات الأخرى.

ورأيت أيضا شبحا يلمع أعلى كومة ثلج، ومضيت أفكر فى هذا الشبح حتى عرفت أنه شبحى، فهل جعلتنى الكرات الثلجية لا أرى بوضوح، أم أننى قد مت بالفعل؟ فإن أشباح جميع الكائنات تختفى خلف هذه الثلوج، فلم أعد أرى شيئا... وجاهدت بما أملك من قوة وحاولت أن أرفع رأسى، فرأيت جدى الذى لم يظهر لى من قبل، رأيته يقترب منى خطوة بعد خطوة، لقد كان قادما لاستقبالى.

وهنا عرفت أننى أخيرا عدت إلى مكانى الأول، ومن ثم فإننى سأتشبث بهذا المكان، ولن أرجع إلى هذا العالم مرة ثانية.

ونظرت إلى هذا العالم الذى عشت فيه نظرة أخيرة، وتذكرت لحظة ولادتى، عندما كنت لا أعلم شيئا عن هذا العالم، ومدى تأثرى وتطلعى إلى هذا العالم... ومن منا لم يرتكب مثل هذه الحماقات؟! ثم طارت روحى بعد ذلك إلى العالم الآخر، وهى فى غاية السعادة، غير متأثرة بفراق هذا العالم.

كتبت فى بكين ٢٠/ ٩/ ٢٠٠٩

جبال الذهب والفضة

بقلم: جانغ كانغ كانغ

أحس «لى دا» أنه مثل "إستاكوزا" تتراقص فى عرض الحارة.

يعلق لى دا فى رقبته حلة كهربائية تتدلى فوق صدره، وهى مشدودة من جانبيها بحبل من البلاستيك، تتدلى أسفل كتفه الأيسر كرتونة تليفزيون فارغة امتلأت بالأوراق البالية، تبدو وكأنها ضلفة نافذة كبيرة، وهو يمشى ببطء ملحوظ متألما من ثقلها، تتدلى أسفل كتفه الأيمن حزمة من أوراق الصحف القديمة غير محكمة الربط، حيث كان يعود إلى وثقها بالحبل كل بضع خطوات، ويقبض بيده اليمنى على غلاية شاى، ويمسك بيده اليسرى مقعدا من البلاستيك، حتى كاهله لم يبدُ عاطلا عن حمل شىء ما، فقد علق على كاهله جوا، ومضى يمشى وهو يتمايل فى خط مستقيم، وكأنه يحمل جبلا صغيرا، حتى قدميه لو أنها لم تكن لتساعده على السير، لكانت ساعدته فى حمل بعض الأشياء.

وراح لى دا يلعن ويتمنى أن لو كانت له مائة يد وقدم، لكان حمل كل ما يمكنه حمله من أشياء، فالذى لا يتمكن من حمله اليوم، لن ينتظره إلى الغد. ولقد كان يحمل بالفعل الكثير من الأشياء التى كانت تبدو ملتصقة بجسده، وكأن جسده قد امتلأ فجأة، حتى أصبح يعوق عن السير بحرية. وكان لى دا قد رأى من قبل "إستاكوزا" تتراقص داخل صندوق زجاجى فى مطعم على حافة الطريق، ورأى أصداف تلك الإستاكوزا ملقاة فى كيس القمامة، وبه الكثير من أجزائها الكبيرة والصغيرة، وكأن هذا المخلوق يخلو من اللحم وليس به سوى الأرجل، ومضى لى دا يتحرك ببطء شديد خطوة خطوة، محملا بالأمتعة الكثيرة فوق كتفيه، فما يحمله من حقائب مختلفة الحجم، تبدو حقا وكأنها إستاكوزا كبيرة ذات أرجل وأصداف كثيرة تشاركه السير، فهو لا يستطيع رؤية ما خلفه من كثرة ما يحمل من أشياء، وإذا ما استمع إلى صوت خلفه سارع واتكأ إلى الحائط ليفسح الطريق أمام صاحب الصوت. وكان لى دا يعشق الظلام، ويرى أنه إذا ما أضيئت الأنوار على جانبى الطريق، تغير وجه المدينة تماما، وإذا ما انعكس ضوء المصابيح على براميل القمامة، بدت وكأنها ممتلئة بالذهب الذى يبرق ويلمع.

وعندما رجع إلى منزله، كان الوقت قد بلغ منتصف الليل، وخشى لى دا أن تفزع الصغيرة نى تسه من نومها العميق، فوقف خارج الباب، وراح ينزل الأشياء التى يحملها واحدة تلو الأخرى،

وينقلها إلى داخل الغرفة فى سكون تام، فكان يعلم أنه لو تركها فى الحديقة خارج المنزل، فلن يبقى منها شىء فى صباح اليوم التالى.

وأحدثت الزكيبة عند سقوطها على الأرض صوتا مدويا جلجل أرجاء الغرفة، وعندئذ أضائت مصابيح الغرفة، واستيقظ شوان تسه وهو يفرك عينيه وينظر إلى تلك الأشياء التى تناثرت فى أرجاء الغرفة قائلا: لقد اغتنيت يا أبى.

واعترضه لى دا وهو مشغول بشرب قليل من الماء البارد قائلا: لقد صادفت أسرة تنتقل من مسكنها إلى مسكن جديد، ثم عبر له عن تعجبه من أهل المدينة الذين يلقون بكل شىء قديم، وبعدها دعاه شوان تسه للطعام، فى حين كانت قدماه تزيحان بالأشياء الملقاة على سطح الأرض وهو يقول: ولماذا لم تعد إلينا يا أبى بجهاز تليفزيون؟

وبينما يشرب شوان تسه الحساء، رد عليه لى دا قائلا: وقد فكرت أيضا أن أعود بتليفون محمول، ليساعدنى فى الاتصال بأهلى فى البلدة.

وهنا استيقظت الصغيرة نى تسه ونزلت من أعلى سريرها، ثم قفزت تجاه دمية دب من الصوف، وقد خلا الدب من الصوف تماما وبدا وكأنه كلب أجرب، واحتضنت نى تسه الدب وراحت تثنى على جدها وهى تقول: ما أعظمك يا جدى، إنك كالبابا نويل تأتى لى بالأشياء الجميلة كل يوم.

ولم يكد يمر عام منذ أن التحقت نى تسه بالمدرسة فى المدينة، ولم تكن قد تعلمت منذ أن جاءت إلى المدينة سوى كلمة بابا نويل. فوبخها لى دا قائلا: ما هذا الهراء؟ إذا ما كنت ذلك البابا نويل، فلن أكون فى حاجة إلى أبيكِ وأمكِ، فلأذهب للنوم، لأذهب للنوم.

ولكن نى تسه لم تذهب للنوم، وقرفصت على الأرض وراحت تقلب فى الأشياء القديمة التى تفترش أرض الحجرة، لعلها تجد بينها ما يعجبها، وألقى لى دا بعصا الطعام والسلطانية من بين يديه، وراح يفكر فى أن تعبه اليوم لم يذهب سدى، بل جنى منه أعظم الثمار؛ فقد رجع اليوم بزوج من الأحذية شبه جديد تماما، فقط به ثقب من الجانب، وزوج من الأحذية الرياضية يبدو متينا إلا من ثقب سيجارة فى فرعته، وجاكت من الصوف بسوستة، فقط ساءت حالة سوستة، ولحاف ليس به سوى بقعة صغيرة، سيعود جديدًا تماما إذا ما نُظفت هذه البقعة، وغلاية مياه كهربائية حتى ولو كانت معطلة، فإنها ستصلح لأن تكون ترموسا جيدا لحفظ المياه الدافئة، ومقعد من البلاستيك جديد ليس به أى خدوش، وقد جلس لى دا عليه وراح يتحرك بقوة وهو لا يتأثر، وفحص لى دا الأشياء التى عاد بها، فوجدها جميعها فى حالة جيدة، كلها من ضروريات الحياة اليومية التى لا عيشة هنية دون أى منها، وتعجب كيف يستغنى عنها أهل المدينة بهذه السهولة.

وبدا لى دا راضيا كل الرضى عما جمعه هذا اليوم من فضلات، وعندئذ ألقى بالسلطانية التى كانت فى يده على الأرض، ومال بجسده قليلا وراح فى النوم، ولكنه سمع صوت ابنه شوان تسه يسأله: أبى، لقد اقترب موعد حصاد الخريف، فمتى ستعود إلى القرية؟ فمساحة سبعة مو[1] من الذرة تحتاج عشرة أيام تقريبا لجمع ثمارها، وأنت تعلم أن فينغ مين فى عملها لخدمة رجل مسن فلا يمكن أن تترك عملها، وأنا أيضا أقوم بنقل المياه يوميا إلى الزبائن، ولا يحق لى طلب إجازة، فإذا نويت السفر، فعلىّ أن أقوم بحجز تذكرة القطار قبل سفرك ببضعة أيام، ولكن شوان تسه لم يستمع إلى رد أبيه، واستمع إلى صوت غطيط مرتفع.

وكان لى دا قليلا ما يسلك حارات المدينة، فهو يعلم أن أهل تلك المساكن القديمة يعيشون حياة مليئة بالحرص، فيوفرون ما لديهم من صحف وزجاجات فارغة لبيع كل ما يتبقى لديهم فى سوق النفايات، فلا تأمل أن يلقى عجوز رجلا كان أو امرأة بأى شىء خارج المنزل، حتى ولو كان شيئا صغيرا فى حجم المسمار.

ويذكر لى دا أنه قبل ستة أشهر مضت، كانت يداه ترتعشان بشدة وتصبب جبينه عرقا عندما فتح كيس القمامة البلاستيكى الذى التقطه من على جانب الطريق، وكل ما كان فى داخل الكيس

---

(١) مو: وحدة لقياس مساحة الأراضى الزراعية فى الصين، ومساحة ١ مو تساوى: ٦٦٦٠٦٧ مترًا مربعًا. (المترجم).

كان عبارة عن بعض من أوراق الخضروات وأعقاب السجائر وغيرها من النفايات ذات الرائحة الفاسدة الكريهة، والتى جعلته يشيح بوجهه عنها، ولم يلتقط منها سوى برطمان مثقوب سهل الفتح، وعندما هم أن يغادر الكيس، فإذا به يحملق بعينيه فى الكيس ثم لم يتمالك نفسه وطأطأ برأسه نحو كيس القمامة البلاستيكى، فظهرت أسفل أوراق الخضروات حواف علبة صغيرة غير محكمة الغلق، وظهرت من العلبة أسورة ساعة يد لامعة، وهنا أخذ قلبه يخفق بشدة وهو ينظر حوله ويداه ترتعشان، ثم التقط العلبة الصغيرة فى حذر، وراح يروزها بيديه. وعندما فتح العلبة، رأى ساعة يد فى حجم حبة المشمش مرصعة بحواف ذهبية اللون، ثم وضع لى دا الساعة على راحة يده، وقربها إلى أذنه فلم يصدر منها أدنى صوت، مما جعله يتساءل: أترى أنها ساعة معطلة؟ ورد على نفسه قائلا: ولكن يبدو على سطحها بعض من العقارب الطويلة والقصيرة التى تدق فى خشخشة لا يمكن أن تميز منها التوقيت الحالى، فوقف فى مكانه مذهولا، ثم تساءل: هل أعيدها إلى مكانها؟ ورد على نفسه: أأحمق أنا، ثم فكر أنه ليس من حرج فى أن يأخذها إلى البيت، وراح يفكر أتراها هدية من السماء أم فخا نصبه له أحد الناس؟ وعندئذ تجمد فى مكانه ولم يستطع الحركة، وأحس أن الساعة التى بين يديه كأنها صارت قنبلة موقوتة.

وقال لى دا فى نفسه: لقد التقطت هذه الساعة من القمامة، ومن يعثر على شىء بين أكوام القمامة فهو له، وهذا مثل ما أننى كنت التقطت فجلة من على جانب الطريق، أو بعضا من عيش الغراب من وسط العشب، فلمن كنت سأرد ما التقطته؟ ولمن تكن هذه الأشياء إن لم تكن لى؟ نعم، إنه الحظ السعيد! وصدق المثل القديم: ليس من حق أحد أن يلتقط شيئا ضائعا من آخرين، وعلى العكس تماما إذا لم تلتقط ما يلقى به الناس زيادة عن حاجتهم، فسيأتى من يلتقطه غيرك، وسيكون شيئا مفيدا إذا ما التقطه غيرك، أما إذا تركت هذا الشىء فى مكانه، فمصيره إلى القمامة ثم إلى مستودع النفايات. ونفخ لى دا صدره وعزم فى داخله على شىء ما، فراح يزن ويتفحص الساعة وهو فى غاية السرور، ثم بدأ يمسح بكمه آثار العرق الذى غطى وجه الساعة.

وفجأة فتحت نافذة شقة فى تلك العمارة وردية اللون الواقعة إلى جانب كيس القمامة، وأطلت منها سيدة ذات شعر أجعد ونادت على لى دا قائلة: أنت يا جامع القمامة، لا تنسَ أن تحكم ربط فوهة الكيس بعد أن تنتهى من عملك، واحذر أن تترك المكان قذرا! فأجابها لى دا بالموافقة، ثم تعجل بوضع الساعة فى جيبه وفر مسرعا.

وأثناء سيره فى الطريق كان يردد مع نفسه: إن هذه الساعة قد جمعتها من القمامة ولم أطلبها من أحد، فالتسول هو أن تمد يدك

إلى الآخرين وتطلب منهم شيئا ما، ولى دا ينحدر من أصول عائلة مزارعين وليسوا متسولين، وإنهم كانوا يتسولون فقط فى أعوام القحط، بل إن بعضهم كان يفضل الموت جوعا على التسول.

وكان لى دا قد جاء إلى هذه المدينة ليساعد ابنه فى رعاية حفيدته، ثم فكر فى أن يجد له عملا آخر يسليه ولم يأت ليتسول. ولقد اقتربت ثمار القمح الذى يزرعه فى بلدته أن تنضج، وإنه ليعجز أهل المدينة أن يأكلوا مثل هذه الثمار الطازجة، فهل هو فى حاجة لأن يتسول فى هذه المدينة، وإنه لم يطلب هذه الساعة من أحد فى المدينة، بل هى التى أصرت أن يصطحبها معه، ولم يستطع أن يهرب منها وهى تلاحقه.

ومنذ ذلك الحين، أصبح لديه ساعة كبيرة مبهرة، دائما ما يعلقها فى ذراعه النحيفة، وبمناسبة ودون مناسبة كان لى دا دائما ما يظهر الساعة فى يده؛ حيث كان يحب أن يرفع ذراعه عاليا ويلف به لفة دائرية فى الهواء، ثم ينزل به ويثبته أمام عينيه ثم يطأطئ رأسه يتمعن فى الساعة، فقد كان يتمنى أن يرى كل المحيطين به هذه الساعة الجميلة، حتى إن ذراعه أصبحت تؤلمه من كثرة رفعه عاليا، ولكن لى دا لم يصل إلى مبتغاه بعد، واكتشف أن مثل هذه الساعة كان بوسعها التحكم فى أيامه الماضية المعطلة، فالإنسان يسير وفق عقارب الساعة، فهى تحدد له مواعيد الأكل والنوم، وإنها لتتفوق فى ذلك على عمدة القرية. وبعد بضعة أيام،

عادت نى تسه من مدرستها تبكى وتشكو من توبيخ المدرس لها؛ لأنها تتأخر كل يوم عن موعد بداية الدرس، وعندئذ اكتشف لى دا أن ساعته لم تكن مضبوطة، فهى متأخرة نصف ساعة عن التوقيت الصحيح، فراحت نى تسه تزيد من بكائها ولى دا يضحك قائلا: إن هذه الساعة بالتأكيد ألقى بها صاحبها ليتخلص منها، وإننى لم أسرقها.

ومنذ ذلك الحين صار لى دا مشغولا بأكياس القمامة الملقاة على جانبى الطريق، فسكان البنايات الصغيرة ذات الطراز الأجنبى من دورين أو ثلاثة أدوار هنا فى حى "حديقة شيو شوى" صباح ومساء كل يوم وبمعدل كل ساعة تقريبا، يلقون بأكياس قمامة سوداء، وإن لم تنظر بعينيك فلن تتحقق من ذلك، ولقد فتح لى دا الأكياس أكثر من مرة بنفسه حتى إنه فزع فزعا شديدا مما رآه فى داخلها.

ومنذ ذلك اليوم أصبح له عمل يومى يداوم عليه، فبغض النظر عن الساعة التى التقطها، فقد وجد لى دا لنفسه عملا، بل وأفضل بكثير من كل أعماله السابقة، فما عليه إلا أن يطوف كل يوم داخل ذلك الحى الصغير، فالجاهل يصف ما يفعله لى دا بجمع القمامة، والعاقل يدرك أنه يجمع الأموال.

وكان لى دا قد تنقل بين أكثر من عمل خلال أول شهرين قدم فيهما إلى المدينة، وجعل له شوان تسه عملا، وهو أن يقوم برعاية

نى تسه فى الذهاب والعودة من المدرسة؛ حيث كان شوان تسه وزوجته قد قدما إلى المدينة للعمل منذ بضع سنوات، وتركا ابنتهما نى تسه فى بلدتهما إلى أن بلغت سن المدرسة، وأصرت فينغ مين أن تأتى نى تسه إلى المدينة وعللت أن المدينة بها مدرسة مخصصة لأبناء العمال، ولن يتطلب الأمر منهم أى مصاريف دراسية إضافية. فاستأجر شوان تسه وفينغ مين شقة بسيطة واستدعيا لى دا لمساعدة الصغيرة نى تسه فى إعداد الطعام وغسل الملابس، علما بأنه إن لم يكن هناك من يرعى نى تسه فى الذهاب والعودة من المدرسة، فإنه من السهل جدا أن تُختطف هذه الصغيرة، فالمدينة ممتلئة بالأشرار. وكانت أم شوان تسه قد توفيت منذ سنوات مصابة بمرض عضال، واعتمدت الأسرة على لى دا لرعاية البيت والحقل، وفى الحقيقة فإن لى دا لم يكن يرغب فى قرارة نفسه أن يأتى إلى المدينة، فقد كان لديه أحفاد أولاد لأخوىّ شوان تسه الصغيرين واللذين إن تركهما وجاء إلى المدينة لرعاية حفيدة أنثى، فإنه بالتأكيد سيكون موضع سخرية من أهل القرية، ولكن شوان تسه استمر فى استعجاله، ولى دا غير راضٍ فى قرارة نفسه، حتى حثه شوان تسه خلال مكالمة تليفونية: فلتأتِ يا أبى، فلقد انتهيت من بذر القمح، فماذا أمامك من أعمال أخرى؟ المدينة هنا مليئة بالأعمال، وإنك إذا ما أتيت فلن تفكر فى العودة ثانية، وعندئذ تغيرت فكرة لى دا فى العزوف عن المدينة.

واستقل لى دا الأتوبيس ثم ركب القطار، واستقل الأتوبيس ثانية

بعد أن نزل من القطار، وعرف بعد أن جاء إلى المدينة أن الأتوبيس هنا لا يسمى أتوبيسا بل يسمى "سيارة النقل العام"، ولم تعجبه هذه التسمية، بل وفكره هذا الشيء بما تفعله أنثى البقر فى فصل الربيع من كل عام؛ فسيارة النقل العام تسير ببطء شديد وهى تلهث، وتقف عند كل محطة تقابلها للراحة، فهى فى ذلك أبطأ بكثير من أنثى البقر. وإنه إذا ما نظر أحد ركاب هذه السيارة خارج النافذة فسيرى أعدادا كبيرة جدا من العمارات الشاهقة التى تتسارع نحو السماء، وإن الناظر إليها ليخشى أن تسقط عليه فجأة أو تكسر رقبته من طيلة النظر إلى أعلى. وسيرى أن الشوارع تمتلئ بالسيارات الصغيرة التى تبدو كأكوام مكدسة من أسراب الجراد، فالسيارات هنا تقفز الواحدة منها تلو الأخرى فى صخب شديد، حتى إن الناظر إليها ليزيغ بصره من كثرة السيارات التى تملأ شوارع المدينة.

ولم يكف شوان تسه عن الثرثرة أثناء استقباله لى دا، فكان يخبره عن أصل هذا وذاك، وأن مساكن هذه المنطقة جميعها قصور لا يجرؤ هو على دخولها، حتى إن لى دا كاد يفقد وعيه من شدة التفكير فى المدينة هذا المكان الجميل، فهنا أو هناك، فى زوايا الطرقات أو بين شقوق الجدران وفى كل مكان، هناك الكثير من الأعمال التى لا تنتهى.

وهنا صاح شوان تسه: وصلنا وصلنا، وما إن نزل لى دا من "الأتوبيس" حتى وقف شاردا.

تنتصب أمام المحطة لافتة حديدية مكتوب عليها ضاحية "ليو لى جوانغ"، وجميع المعالم أسفل هذه اللافتة من طريق إسفلتى غير مستو، عوارض الأسلاك الكهربائية على جانبى الطريق، المنازل المبنية بالطوب الأحمر، السور الترابى الأصفر القصير، حظائر الحيوانات وعشش الدجاج داخل السور الترابى، ونفايات الكلاب المكدسة أمام المدخل، هذه الأشياء جميعها لا تختلف عن بلدته، حتى إن لى دا يعتقد أنه قد عاد ثانية إلى"قرية عائلة لى".

وهنا تدخل شوان تسه موضحا: هذه هى ضواحى المدينة، وإنه ليس أمامنا سوى العيش فى هذه المناطق البسيطة؛ فإيجار الشقة فى المدينة يزيد على ألف يوان[1] وإذا ما دفعت أنا وفينغ مين كل ما نكسبه فى إيجار شقة، فلن يتبقى لنا ما نأكل به، غير أن هذه الضاحية تفوق المدينة كثيرا، فانظر هناك شرقا، هناك يقع مكان عمل فينغ مين، وعندئذ بقى لى دا شاردا هنالك إلى حيث أشار ابنه شوان تسه.

ويقع فى الناحية الشرقية من قرية "ليو لى جوانغ" نهر صغير، يبدو عبارة عن سياج أبيض طويل، تتسلقه كمية من الأوراق الخضراء وخمائل من البراعم الزهرية المتفتحة، ويمكنك أن ترى من بين فتحات هذا السياج مساحات شاسعة من حقول

---

(١) اليوان: العملة الرسمية فى الصين، والدولار الأمريكى يعادل حوالى ٦.٢يوان عام٢٠١١. (المترجم)

الخضراوات والقمح وبنايات صغيرة من طابقين أو ثلاثة طوابق منغرسة وسط الحقول الخضراء، منها ذو السطح الأزرق البنفسجي والأحمر الزاهي والأخضر الزمردي، وقد خلت الأسطح جميعها من أية شقوق وبدت في لون واحد. وينتصب أمام كل منها باب حديدي أسود مزخرف بالورود، وينبثق من وسط البحيرة عمود مائي يشبه الرذاذ المتساقط، فبدت له تلك البنايات كالمساكن الأجنبية التي يشاهدها في الأفلام السينمائية.

إن فينغ مين تعمل في ذلك المنزل ذي السطح الأزرق، قالها شوان تسه سعيدا وبصوت عال، ثم انخفض صوته فجأة وأضاف، وإن مرتبها ليس قليلا ولكن غير مسموح لها بالعودة إلى البيت كل يوم، ثم قال: أبي لقد أسعدني مجيئك إلى المدينة واطمأن قلبي بقدومك للإقامة معنا.

فقاطعه لي دا غاضبا: أنت مطمئن ولكنني غير مطمئن؛ فقد تركت حقل القمح وأتيت إلى المدينة لأصبح عاطلا، وبتكاسلي هذا ستُهمل بعض رءوس الحيوانات في الحظيرة، وسيتهمني الجميع أنني منحاز لك دون أخويك اللذين تركت طفليهما في القرية.

ورفع لي دا رأسه وأشار إلى تلك البنايات الواقعة عند النهر، وتساءل في هدوء: وماذا تسمى تلك البنايات؟ فأجابه شوان تسه: إنها حي "حديقة شيو شوي"، إنها الفيلات التي يسكنها الأغنياء. فأصدر لي دا من أنفه صوتا مسموعا ثم قال: عرفنا أن هناك

خونغ شو وباى شو، ولكن لم نسمع من قبل أن هناك أيضا بيه شو[1]! فلم يكن هو وقتها ذا بصيرة بالمدينة، فقد عرف فيما بعد أن القشور التى تُلقى من هذه الفيلات، كافية لأن تملأ غرفته بل وستفيض عن ذلك بكثير.

وكان لى دا قد توصل بنفسه خلسة إلى عمله الثانى بعد خمسة عشر يوما من قدومه إلى المدينة، حيث كان قد استغل انشغال حفيدته نى تسه فى مدرستها، وطاف مسافة أكثر من نصف كيلو متر فى المنطقة المجاورة للمدرسة، حتى تقوس كاهله من كثرة التعب. واكتشف خلال جولته أن المطاعم هنا تطلب عمالا صغارا لغسل الأطباق وحملها، والصالونات تطلب فتيات صغيرات لغسل شعر الزبائن، والعمل كهربائيا أو سباكا أو بناء يتطلب شهادة تخصص، والعمل فى مواقع البناء يحتاج إلى قوة عضلية، حتى إن المقاول عندما رآه سخر منه قائلا: ماذا أتى بك إلى هنا أيها العجوز؟ لسنا هنا دار مسنين. حتى بائع الخضراوات اشتاط منه غضبا، وطلب منه ألا يعوق تجارته بوقوفه أمام دكانه فى سوق الخضراوات. وسمع لى دا أن البائعين فى السوق هنا كانوا قد جاءوا من الريف، وسكنوا البنايات التى شيدتها الحكومة، وتركوا أعمال الزراعة وبدأوا مثله رحلة البحث عن عمل، ولكن المغترب

---

(١) خونغ شو فى اللغة الصينية تعنى: ثمرة البطاطا، وباى شوى تعنى: البطاطس، أما كلمة بيه شو فتعنى: (الفيلات المخصصة للسكن). (المترجم)

الجديد من وجهة نظر المغتربين القدامى ما هو إلا لص وقاطع طريق، فإذا كان لأمثالك عمل، فماذا سيأكلون هم؟ فالعالم يقوم على حتمية وجود فقراء جوعى حتى يكون هناك أغنياء موسرون، إلى غير ذلك من الأفكار التى أدركها لى دا فى شبابه.

يبدو مدخل حى "حديقة شيو شوى" ذا طراز فريد، فى ارتفاع بوابته مثل أبواب القصور العالية، مكتوب على بابها المقوس بكلمات مذهبة، وتنتصب أمام المدخل الحديدى ذى النقوش السوداء عارضة خشبية حمراء، وتقف هنالك السيارات الصغيرة للفحص عند الدخول والخروج، ويقف إلى جانب المدخل رجل فى منتصف العمر، ملابسه ملطخة ببقع البويا، يبدو وكأنه فى انتظار شخص ما. وتبادل الرجل مع لى دا النظرات المتمعنة، ثم اقترب منه سائلا: يا أسطى، هل تستطيع أن تقوم بغربلة كمية من الرمال؟ فذُعر لى دا، حتى إنه لم يرد على الرجل السائل، فعاد الرجل يسأل ثانية، وعندئذ سارع لى دا بالرد: نعم أستطيع، أستطيع، ومن لا يستطيع ذلك، بل وأغربل لك الذهب إذا شئت، وعرض عليه الرجل ٢٠ يوانا فى اليوم، ثم سأله: هل أنت موافق؟ فأجابه لى دا: نعم موافق موافق، ثم تحدث الرجل ببعض الكلمات مع رجل الأمن الواقف عند المدخل، بعدها اصطحب لى دا خلفه ودخلا إلى الحديقة.

وكانت تلك هى أول مرة تطأ فيها قدماه مربع فيلات شيو شوى، حيث رأى فى طريقه إلى وسط مربع الفيلات زهريات صفراء مبهرة تبدو كالساعات المعلقة على جانبى الطريق، وبدت الفيلات واحدة تلو الأخرى وسط غابات الأشجار، أسوار برتقالية اللون، سياج وشرفات من الحديد الصلب، ونوافذ زجاجية كبيرة تبدو تحت أشعة الشمس مثل صناديق ذهبية، وهنا أحس لى دا أن حديقة شيو شوى مكان جميل يبهر الناظرين، ولم يستطع أن يحدد ما وضع على جانبى الطريق التى كانت فى غاية النظافة واللمعان. حتى إنك إذا بصقت عليها يتزحلق بصاقك بسرعة على سطحها من شدة لمعان الأرض، وكان لى دا يتمايل بجسده فى حذر شديد، حتى إنه تخيل أن قدميه إنما تدوسان على منضدة طعام، وإنه يخشى أن يحطم ما فوقها من أطباق إذا خانته قدماه، وراح يردد فى نفسه: نعم فيلات فيلات، ما أجمله من مكان، وإن كل الأسرار تختبأ داخل هذه الفيلات.

وكانت أكوام من الرمال الخشنة مكومة هنالك أمام مدخل فيلا تحت التشطيب لم تسكن بعد، تعلو داخلها أصوات الدك والحفر. وعندما دخل لى دا الفيلا سارع بالانهماك فى عمله إثر إشارة له من رئيس العمال، ولا يغُرك تقدم سن لى دا، فهو لا يعبأ بحمل جوال ممتلأ بالقمح، بل ويلوح به بين يديه وكأنه فوطة صغيرة يقبض عليها بيد واحدة، ولم يكد يمر وقت قصير حتى نجح لى دا

فى تكديس كومة كبيرة من الرمال الناعمة، وقام بطرح الرمال الخشنة خارج الفناء ثم نظفه تماما، وخلال وقت الراحة المخصص للتدخين، جلس لى دا على سلالم الفناء، وراح يتأمل أكوام الرمال التى غربلها، والتى تضاهى فى ارتفاعها نصف قامة إنسان، بل تبدو وكأنها تلّ صغير، وإذا ما داعبتها الشمس، كانت تبدو كجبل ذهبى ناعم، بل كدقيق الذرة الطازج الذى تم طحنه منذ وقت قليل، أو كحبات القمح المتماسكة التى تتقلب فى الجرن فور جمعها. حتى إنه فجأة لم يستطع أن يميز ما إذا كانت هذه الكومة كومة رمال أم حبوب قمح، فانحنى بظهره وقبض قبضة من الرمال وقربها إلى أنفه وراح يشمها، ثم ألقى بها على وجه السرعة، فراحت حبات الرمال تنساب من بين يديه كالماء، ثم أخذ يسخر من نفسه متسائلا: كيف تقارن الرمال بالقمح؟ فالقمح وطحين الذرة لهما رائحة ذكية، إنها رائحة العشب الأخضر، قش القمح، روث الدجاج، رائحة الأرض التى لفحتها الشمس، إنها رائحة جميع أهل القرية، تلك الرائحة التى إذا ما شمها من مات جوعا، دبت فيه الحياة من جديد، أما الرمال فليس لها رائحة مميزة، حتى تلك الرمال الناعمة جدا إذا قبضت عليها، فإنها ستكشط يديك.

ومضى يومان ولى دا لا يزال يغربل الرمال، وهو يشعر بقلق شديد، فقد كان يتسلل فى صباح كل يوم وغروبه كاللص ويذهب ليستقبل حفيدته نى تسه من مدرستها، ويعود بها إلى البيت يعد لها

الطعام، وإنه كان لا يبالى بأن يأكل هو طعامه ويفر مسرعا إلى عمله، وفى صباح اليوم الثالث أتى نحوه رئيس العمال عابس الوجه، وألقى له بورقة فئة خمسين يوانا ثم قال: يكفى هذا القدر من الرمال، ولا داعى أن تأتى فيما بعد، فأخذ لى دا الخمسين يوانا وقال مبتسما: أتمنى أن تطلبنى إذا كان لديك أية أعمال أخرى، فولى رئيس العمال وجهه مغادرا، وهنا راح لى دا ينظر خلفه إلى أكوام الرمال الصفراء التى غربلها بيديه، والتى بدت له كالمقابر التى هجرها زوارها.

ووقف لى دا غاضبا، ثم سار بخطى بطيئة، وقال فى نفسه: لا داعى أن أتعجل الخروج ما دمت قد تمكنت من الدخول إلى فناء هذه الفيلات، فإذا خرجت من هذا المكان، فسيكون من الصعب أن أدخله مرة ثانية، فوضع يديه خلف ظهره، ومضى يتصنع السير ببطء، حتى أحس فى نفسه بأنه مثل عمدة القرية، وراح يردد: لقد أحسنتم صنعا عندما طردتمونى من العمل.

وهنا أدرك لى دا عظمة ما حققه من إنجاز، فقد أوجد لنفسه عملا لا يجرؤ أحد أن يقيله منه أبدا.

وأمسك لى دا بيدى نى تسه الصغيرة الناعمة وسارا تجاه المدرسة الابتدائية خارج القرية، وهو يجر كعب حذائه البالى، وعندما اقتربا من مدخل المدرسة، اندفعت نى تسه وطارت إلى داخل المدرسة مرحة كالعصفور الصغير، وانحنى لى دا بظهره نحو

الأرض والتقط قصاصة ورق، ثم راح ينفضها بيديه محدثة صوتا. وهو يفكر فى نفسه قائلا: يجب علينا ألا نستحقر مثل هذه القصاصة، فالزكيبة الممتلئة بالحبوب الغذائية جُمعت حبة حبة وأول الغيث قطرة، ومنذ تلك اللحظة لم يكن يغفل أية قصاصة ورق فى الطريق، فقد أصبح الآن حاد النظر كالعصفور المتمرن، ولكنه يعلم أن هذا الشارع ملىء بالمارة، لذا فهو أيضا ملىء بجامعى القمامة، فهو يبدو كحقل تم حصاده منذ وقت قريب، فهو يخلو من كل شىء إلا بعض عيدان الذرة الجافة.

وأصبح محل عمل لى دا فيما بعد هنا فى منطقة حديقة شيو شوى، وكانت أوقات عمله هى فترتا ما قبل شروق الشمس وما بعد الغروب؛ حيث كانت تخلو الحديقة فى تلك الأوقات من الناس إلا من بعض رجال الأمن الذين كانوا يطوفون فى الحديقة، آملين أن يقبضوا على أمثال لى دا من هؤلاء الذين يتسللون إلى داخل الحديقة ليلا يبحثون عن الأشياء النفيسة داخل صناديق النفايات فى حديقة الفيلات، وما إن رأى رجل الأمن لى دا، حتى لوح نحوه بالعصا الكهربائية التى يقبض عليها بيديه، فصاح لى دا: لقد فقدت قطتى وأتيت لأبحث عنها، فرد رجل الأمن أجئت تبحث عن الهلاك؟ فانظر إلىّ جيدا ألست أشبه القط! ومهمتى القبض على أمثالك من الفئران، ومنذ ذلك الوقت أصبح لى دا يهاب كل من يرتدى زى رجال الأمن.

وفى واقع الأمر إنه قد مر به كثير من الألعاب المشابهة مثل لعبة القط والفأر هذه، وما إن مرت أيام قليلة، حتى توصل لى دا إلى فتحة صغيرة فى سور الحديقة، وكانت تلك الفتحة تسمح لشخص نحيف مثله أن يتسلل من خلالها إلى داخل حديقة الفيلات.

وضغط لى دا على السيخ المكسور بشدة، ثم ألقى ببعض الأشياء التى بين يديه إلى داخل فتحة السياج، ثم أحكم قبضته واقتلع السيخ من مكانه وحشر جسده داخل الفتحة. ويقع أسفل السياج طريق ضيق على مقربة من مجرى نهر، حتى إنك إذا سرت بمحاذاة النهر ستصل إلى القرية التى يستأجر فيها شوان تسه شقته، وإنك إذا قمت بنقل أى شىء عبر هذا الطريق الضيق فلن يشعر بك إنسٌ أو جان، وستتفوق بذلك على أخطر العصابات المتخفية، وعندئذ فإن أخطر قط لن يستطيع القبض على فأر متمرس مثل العجوز لى دا.

وذات مرة، عثر لى دا داخل صناديق القمامة على راديو قديم، فأخذه ليتسلى به فى بيته، وقد نطق الراديو بصوت مسموع بعد أن كان قد حاول تزويده بأكثر من بطارية شحن قديمة ملتقطة من القمامة، وراح يجلس إلى جواره يتسلى به فى أوقات فراغه، وذات يوم وبينما هو ينصت إلى الراديو، استمع لكلمة "سر التجارة"، فمضى يفكر فى أنه لماذا يتقن بعض الناس جمع الفضلات ولا يستطيع الآخرون القيام بهذا العمل، فرد على نفسه قائلا: هنا يكمن سر التجارة.

وقبل مُضى خمسة عشر يوما من قدومه إلى المدينة، نجح لى دا فى التوصل إلى جميع الطرق المؤدية إلى صناديق القمامة التى تقع داخل مساكن حديقة شيو شوى، وكان لى دا يؤمن بضرورة أن يحب المرء عمله، فهو يرى أن القمامة مثلها مثل الحقل، لابد وأن يوليها المرء عظيم اهتمامه. فمثلا هناك من الناس من يفضل أن يلقى بفضلاته فى جوف الليل، وهو قد يستمر فى ذلك إذا ما اكتشف أن مكانها يكون نظيفا فى صباح اليوم التالى. ومنهم من يجمع فضلاته من زجاجات زيوت بلاستيكية فارغة، وزجاجات مشروبات، كراتين فارغة وصحف قديمة ويضعها خارج مسكنه، ليأتى عامل النظافة لجمعها فى الصباح. فمساكن حديقة شيو شوى تبعد كثيرا عن محطة بيع النفايات، كما أن عربات شراء القمامة غير مسموح لها بدخول سور المساكن، لذا فكان على لى دا أن يبادر بجمع الفضلات قبل عامل النظافة الذى يأتى فى الصباح، وإذا ما تأخر عن ذلك، فسيضيع عليه الكثير من الأشياء المفيدة. وصادف ذات مرة أن عثر على أريكة ملقاة أمام مدخل إحدى فيلات الحديقة، ولم ير أحدا بالقرب منها، فجلس لى دا على الأريكة ثم أرخى جسده عليها. وبعد أن قلب فيها اكتشف أنها مطوية وإذا ما فتحت تحولت إلى سرير، وبعد أن عاد إلى منزله مضى ليلته يفكر فى أمر الأريكة، وفجأة قام وأخذ معه حبلين وتوجه إلى مكانها فى مربع الفيلات، وعندما وصل إلى هناك، سارع برفعها وحملها على كاهله ونقلها

إلى جانب السور الحديدى، ثم ربطها بالسور وحشر نفسه معها وقفز إلى خارج السور ثم سحبها فى حذر شديد، وبعد جهد كبير نجح فى نقلها إلى الخارج، ثم عاود حملها على كاهله عائدا إلى قرية ليو لى جوانغ.

وفى الوقت الحالى، فإن لى دا دائما ما يجلس على الأريكة يستريح ويستمع إلى صوت الراديو، وهو يشرب الماء الدافئ من الغلاية، فالمدينة تبدو الآن جميلة جدا فى عينى لى دا، فإذا ما احتجت إلى أى شىء فى بيتك فيمكنك جمعه من الخارج، وكل ما تحتاجه فقط خفة يديك وساقيك أثناء تنفيذ مهمتك، فمن الصعب جدا أن تجمع المال من الخارج، لكن على العكس تماما من اليسير جدا أن تجمع الأشياء التى تحتاج إليها فى معيشتك، ما دمت لا تتذمر من أن هذا قديم وذاك بال ولا تستحى من شىء، عندئذ ستتمكن من جمع الكثير من الأشياء، والتى يمكن أن تكفى لتجهيز بيت جديد مكتمل من كل شىء، بل ويفوق بيت عمدة القرية التى ينحدر منها لى دا.

وإذا رغبت فى الاستماع إلى ذلك الراديو القديم، فعليك أن تمسك به بيديك وتقربه من أذنك. وإذا سكت صوته، هزه قليلا حتى تصدر عنه ثرثرة كصوت البوق المعلق عند مدخل القرية.

فلا عجب أن يتمنى الجميع أن يأتوا إلى المدينة.

ولم يكد يمر وقت طويل حتى حمل لى دا كل ما جمعه من قصاصات ورق وزجاجات بلاستيكية فارغة، عائدا إلى بلدته قرية ليو لى جوانغ، وعندما دخل القرية كان يلوح بما يحمله مزهوا وكأنه قد عاد لتوه من التسوق فى متاجر السوبر ماركت الكبرى، وتلك كانت عادة تعمدها لى دا كلما شارف مدخل القرية، فهو لا يستحى أبدا من جمع القمامة، وفى رأيه أن من يستحى إنما يستحى من نفسه، وإذا لم يستحِ المرء من نفسه، فليس فى حاجة لأن يستحى من الآخرين.

وناداه ذلك الأعرج الواقف أسفل الشجرة قائلا: هل عدت ثانية لجمع الخردة!

فرد عليه لى دا مكشرا: لقد أخبرتك أكثر من مرة أن ما أقوم بجمعه هو أشياء مفيدة وليست خردة.

فضحك الأعرج ساخرا: ممتاز جدا، وهل ترى نفسك مدير مكتب حماية البيئة!

وعندما دفع لى دا باب المنزل وهمّ أن يدخل إلى غرفته، نسى أن يحنى ظهره، فما إن رفع قامته حتى اصطدمت رأسه بجوال بلاستيكى صلب فتألم كثيرا، فقد كان هناك بالغرفة أكثر من عشرة أجولة بلاستيكية مثل هذا الجوال، جميعها مربوط بعصاة من البامبو خصصت لتعلق عليها الأجولة، وكان لدى العجوز لى دا

القدرة على تمييز ما فى داخل الجوال وهو مغمض العينين، وحيث كان هذا الجوال يحتوى على أنواع الدُمى المختلفة، ففيه أكثر من عشر سيارات أطفال معطلة، به سبع أو ثمانى عرائس دون ذراع وذات رءوس منحنية، به لوحات بلاستيكية لتعليم كتابة الرموز الصينية، به أرانب من الصوف ذات آذان طويلة، ولوحات بلاستيكية للرسم، أقلام رصاص فقدت رءوسها، وبه طيار لعبة يرتدى قبعة رمادية اللون (ويذكر الأعرج أن هذا الطيار يسمى هوتمان)، وغيرها من الألعاب الكثيرة التى جمعها لى دا من صناديق القمامة وغسلها جيدا فى ماء النهر، ووضعها تحت أشعة الشمس فأصبحت كالجديدة تماما، وإذا قام لى دا بفرش هذه الألعاب على الأرض، فبالتأكيد لن تسعها غرفته، وستبدو الغرفة كمتجر مخصص لبيع الدُمى، أما إذا ما حملها إلى مسقط رأسه، فستبدو جميعها فى نظر أهالى البلدة أشياء نادرة وسيتصارع عليها حفيداه. أما ذلك الجوال فيحتوى على أنواع الحبال المختلفة، منها القصيرة، والطويلة، والمتعرجة، والمستقيمة، والمستديرة، والمقوسة إلى جانب حبال مطاطية أخرى، وهى جميعها من ضروريات الحياة اليومية. من بينها حبل ملون جميل كان قد رأى صاحبه يلقى به إلى صندوق القمامة بعد أن فكه من حزمة زهور، ويبدو الحبل من جماله وكأنه صنع من قماش حريرى أحمر زاهٍ؛ لذا فقد قرر لى دا أن يحتفظ بهذا الحبل ويعود به إلى بلدته، وذلك لكى يستخدمه فى ربط بعض

الهدايا التى يهديها لأقربائه فى العيد، فبالتأكيد ستبدو الهدايا جميعها قيمة وغالية الثمن.

هذا إلى جانب كمية كبيرة من الملابس التى ستكفى جميع أفراد أسرته لمدة عام كامل، فالقبعات مثلا يوجد منها العشرات، قبعات من الصوف، والجلد، والقش، وقبعات من القطن وغيرها من القبعات التى تكفى لأن يرتديها نصف سكان قريته بالكامل، وهناك أيضا الكثير من المعاطف القطنية التى يملأ الواحد منها جوالا من البلاستيك، وتملأ مجتمعة جميع أركان الغرفة.

حتى إنه ليصعب عليك أن تلف بجسمك داخل هذه الغرفة الصغيرة، والتى امتلأت على آخرها بالأشياء المختلفة عدا ركن صغير للطعام والنوم، حتى إنها بدت من ازدحامها كأنها مخزن مصنع الأسمدة المعروف فى بلدة العجوز لى دا، ولم تعد تبدو قط مكانا للسكن. وأصبح أكثر ما يؤرق لى دا هو نقل هذه الأشياء إلى القرية، ذلك على الرغم من أنه كان قد باع الكثير مما أمكنه بيعه من علب ورقية، وصحف قديمة، وزجاجات بلاستيكية، وزجاجات خمور وحديد ونحاس خردة لمستودع النفايات، وبقيت فقط الأشياء التى لم يقبلها المستودع. فإنه اكتشف أن ما لم يتم بيعه هو الأفضل والأقيم مقارنة بتلك الأشياء التى قبلها مستودع النفايات، كالأحذية مثلا، فمنها أحذية مصنوعة من القطن، والقش، والبلاستيك والجلد، وصنادل وأحذية رياضية وأحذية رجالية وحريمية وأحذية

أطفال وغيرها من الأحذية، وحيث إنه كان قد نجح بالفعل فى إصلاح زوج أو زوجين من أحذية شبه جديدة جمعها من صناديق القمامة ولبسها بنفسه. وبعد ستة أشهر من جمعه الأحذية فى المدينة، جمع لى دا جميع مقاسات الأحذية الكبيرة والصغيرة، والتى ستناسب أولاده وزوجاتهم بل وأحفاده مستقبلا عند بلوغهم سن المدرسة. وقد اكتظت المساحات أسفل الأسرّة الموجودة داخل الشقة التى يستأجرها ابنه شوان تسه بثلاثة أجولة ممتلئة على آخرها بالأحذية. وكان قد زاره ذات يوم ابن أخيه الذى يعمل فى المدينة، وحمل الزائر بعضا من الفاكهة أهداها لحفيدته نى تسه، وفرحت نى تسه بهديته كثيرا وقالت: إن جدى لديه الكثير من الأحذية أسفل السرير، وسأطلب منه أن يهديك زوجا من الأحذية ذات الكعب العالى، فغضب لى دا كثيرا مما سمعه، فهو يعتقد أن هذه الأحذية وإن لم يتمكن من بيعها، فهى أثمن بكثير من أن تباع بالمال، بل وإن الأحذية هى أكثر ما يفضله الريفيون، فكيف يعز على أى منهم أن ينزل إلى عمله بحذاء جديد؟ وقد جمع لى دا الأحذية التى تكفى لأن يرتديها جميع أفراد أسرته طوال العام، والتى تفوق بكثير أنواع الأحذية فى مسقط رأسه، وذلك دون أن ينفق فيها مليما واحدا. ويمكن أن يقول إنه قد أمن احتياجات الأسرة حتى آخر يوم فى حياة كل منهم، وهو الآن ينام كل يوم متوسدا الأحذية مطمئن البال.

ويشعر لى دا بالأسف الشديد بسبب أنه قد أشقى بعمله هذا حفيدته نى تسه ذات الأعوام السبع؛ فقد أصبح منذ مزاولته هذا العمل كالحمار الذى يدور فى الرحى، فكل يوم يحوم حول مساكن شيو شوى، آملا أن يعثر على شىء جيد، ولم يكن لديه من وقت لأن يجهز لها ولو وجبة ساخنة.

وفجأة سمع صياح الأعرج: متى ستعود إلى القرية لجمع محصول الخريف يا لى دا؟ لقد جمعت ما يكفى من الخردة حتى ملها أحفادك؟

وكان من عادة لى دا أنه لا يحب أن يهتم بهراء الأعرج، فهو عاطل طوال اليوم يدخن أجود السيجار، بل ويبدو إنسانا غير مستقيم، فلقد مله لى دا، خاصة فى الفترة الأخيرة وهو يقترب من منزله بسبب وبدون سبب.

ودفع الأعرج الباب قليلا وأطل برأسه داخل الغرفة قائلا: هناك أسرة فى جنوب شرق الحى تقوم بتركيب جهاز إنذار جديد، وقد ألقوا بالحديد القديم خارج المنزل.

وهنا راح لى دا يحملق فى سقف الغرفة ويتمتم بكلمات غير مفهومة.

وأضاف الأعرج: وقد تذمر عامل النظافة من ثِقل أسياخ الحديد وتعلل أن غريته لا تقوى على حمله، وأرسل ليخبرنى بذلك.

فراح لى دا يفكر فى أنه لو ذهب سيضيع على الأقل ساعتين، وكيف سيترك نى تسه وحيدة فى المنزل؟ ولكن بعد أن فكر فى الأمر قليلا رد على الأعرج: فلتذهب أنت لنقلها إذا رغبت فى ذلك، أما أنا اليوم فيجب أن أمكث فى المنزل أرعى نى تسه، لأن ابنى شوان تسه لديه اليوم وردية إضافية وسيعود متأخرا، فلم يرد الأعرج على كلامه واكتفى بأن ألقى إليه بسيجارة وغادر المكان.

وجلس لى دا على سريره شاردا بعض الوقت، وفجأة اتخذ قراره بأن يعود إلى مسقط رأسه لجمع محصول الخريف مهما كانت الظروف، وأن يحمل معه جميع الأشياء التى بالغرفة ويخليها استعدادا لأن يعاود ملأها من جديد.

وفى المساء عادت الصغيرة نى تسه من مدرستها، وبعد تناولها العشاء جلست تكتب واجباتها على ضوء أباجورة مثبتة فوق المنضدة، وهذه الأباجورة هى أيضا من النفايات التى جمعها جدها العجوز لى دا من صناديق القمامة، وتبدو كزجاجة من الخزف مغطاة ببلورة بيضاء، وهى جميلة جدا غير أن ضوءها كان يبدو تارة واضحا وتارة خافتا، وهذا ما كان يجعل لى دا مضطربا جدا، حتى إنه لم يتمالك نفسه، فراح ينظر إلى خارج النافذة فتخيل الأسياخ الحديدية هنالك تبرق وسط الظلمة مثل تل صغير مضىء.

ونظر لى دا إلى عقارب ساعته، فوجدها تقترب من التاسعة ليلا، علما بأنه قد قدر أن ساعته متأخرة نصف ساعة عن التوقيت

الصحيح، وهو يعلم جيدا أن الأعرج لديه طرق وحيل كثيرة، حيث إنه على علاقة ببعض من رجال الأمن، وإنه إذا ما تأخر فسيسبقه الأعرج ويبادر بنقل جميع الأسياخ الحديدية. وهنا لم يتمالك لى دا نفسه، وطلب من نى تسه أن تذهب إلى النوم بعد أن تغتسل، ثم أحكم غلق الباب من الخارج وسار تجاه النهر، وأثناء خروجه من المنزل، لمح ظل إنسان يقف أسفل سور المنزل، ففرك عينيه وأمعن النظر، فاكتشف أنه عمود الكهرباء.

وعندما وصل إلى السور الحديدى الأبيض بجانب النهر، فكّ بعضا من أسياخه ومر ببراعة من بينها، ثم سار يقصد المكان الذى ذكره الأعرج، وعندما بلغه لم يجد به ولو مسمارا صغيرا، فكانت المساحة الواقعة أمام مدخل المنزل فارغة تماما من أى شىء يذكر. فراح يحوم أمام المنزل وخلفه، ثم أخذ يسير على أطراف أصابعه وهو ينظر إلى النافذة، حتى تأكد من أنها والمنازل المجاورة جميعها ليس بها من آثار حدوث تعديلات جديدة.

وبدا لى دا قلقا وهو يروح ويجىء ويبصق على الأرض، ثم راح يتجنب الطرق التى عادة ما يسلكها رجال الأمن، وفضل الطرق التى يراها آمنة، وعيناه تركزان فقط على صناديق القمامة الموضوعة أمام مداخل الفيلات الصغيرة، ولم يكد يخطو بضع خطوات إلى الأمام، حتى كاد يصطدم بشجرة، فتوقف فجأة وأمعن النظر فاكتشف أن الشجرة فى الأصل هى شاب وفتاة قد وقفا متعانقين

يتبادلان القبلات، وحينما تجنبهما لى دا وسار فى طريق آخر، إذا به يصطدم بشجرة أخرى، ولكنها هذه المرة كانت شجرة حقيقية، يوجد أسفلها برميل قمامة، وعندما مد لى دا يده إلى داخل البرميل، لمست يده كيسا ناعما، فأخرجه ليتحقق منه، فوجده ناموسية فى حالة جيدة، فأخذها لى دا وهو مسرور وقد امتص جزءا كبيرا من غضبه.

وانشغل بالتفكير فى أهل المدينة، ومضى يفكر فى أنهم كيف لا يحسنون صيانة الأشياء التى تلفت ويعاودون استخدامها؟ فهم فقط يحسنون إتلاف الأشياء الجيدة، وسمع أن سكان فيلات شيو شوى يخرجون يوميا فضلاتهم إلى الخارج، بل وينفقون على سيارة القمامة الواحدة عشرات اليوانات حتى تنقل مخلفاتهم إلى مستودع القمامة، فكيف يوجد فى هذا العالم من ينفق أمواله للتخلص من فضلاته؟ فيشترى الواحد منهم الثوب ويلقى به غدا حتى ولو لم يلبسه مرة واحدة، بل ويشترى الواحد منهم كرتونة كبيرة الحجم وينهمك فى فتحها، حتى يصل فى النهاية إلى شىء صغير داخلها، ثم يلقى بما أخرجه من بلاستيك إسفنجى لا يقبله منه تجار الخردة، فترى هل عاش الإنسان عمره كله يكسب الأموال ليل نهار لأجل أن يحولها إلى قمامة؟ فانظر إلى تلك السيارات التى تزدحم بها الشوارع، والتى ستتحول إلى حديد خردة خلال بضع سنوات، وتلك المساكن التى هُدمت وتحولت إلى فتات من الطوب بحجة أنها

قديمة، وانظر إلى لحوم الدجاج والبط والأسماك المتبقية فى المطاعم والفنادق، خاصة فى بكين، هذه المدينة التى تلقى بكميات كبيرة جدا من فضلات الطعام داخل بلاعات الصرف، حتى المرأة يتعامل معها الرجل كما يتعامل مع القمامة، ويتخلى عنها بعد الزواج والإنجاب وبعد أن تفقد جمالها بتقدم العمر، فمضى لى دا يفكر غاضبا فى هذه المدينة التى تصيب الإنسان بالدوار من صخبها وضوضائها، ولكنها فى الحقيقة ما هى إلا مصنع كبير متخصص فى إنتاج القمامة، وهى فى ذلك لا تشبه تماما القرى، فالناس فى القرى منذ سنوات مضت، كانوا حتى لا يعرفون ماذا تعنى كلمة قمامة، فكان كل ما يخرج من الأرض يعود إليها مرة أخرى، فهناك تجد قش القمح وعيدان الذرة تستخدم وقودا، وأوراق القمح والذرة تستخدم أعلافا للحيوانات، وأوراق الخضروات وبقايا الطعام تستخدم لإطعام الدجاج وبقايا العظام لإطعام الكلاب، فضلات الحيوانات والطيور تستخدم سمادا مفيدا للتربة، الملابس القديمة تستخدم لترقيع الأحذية وأيضا حفاضات للأطفال، أكياس الأسمدة الفارغة تستخدم لصناعة السراويل، حتى إن حثالة التراب الناتج من تنظيف المنازل يمكن استخدامه وقودا مفيدا لإشعال المواقد المنزلية البسيطة.

ومضى لى دا يسير إلى الأمام وهو فى غاية الغضب من أحوال المدينة، ولكنه أبطأ فجأة عندما أدرك أنه قد أغفل خلال سيره

العديد من صناديق القمامة، ثم أعاد النظر فى رأيه فى المدينة، فأحس أنه كان مخطئا فى بعض الآراء؛ فمثلا إذا لم تكن المدينة ممتلئة بالقمامة هكذا، فماذا كان سيعمل منذ أن قدم إليها؟ بل وإن لم تكن مليئة بالقمامة، فالأحرى بها أن يتغير اسمها إلى قرية وليس مدينة، كما أن المعيشة فى المدينة أفضل بكثير من الريف، وأفضليتها تكمن فى قدرة أهلها على تحويل الأشياء المفيدة إلى قمامة؛ فالأسرة التى تلقى بالكثير من القمامة، هى بالتأكيد فى رغد من العيش، وإن عليك ألا تستحقر القمامة أبدا، فالقمامة إنما تأتى بعد الثراء، والقمامة خير دليل على الثراء، وتزداد القمامة إذا ما ازداد الثراء، ويزداد الثراء بازدياد القمامة، فإذا ما نقلنا قمامة بكين مثلا إلى بلدتنا، فسيعيش عليها سكان بلدة بالكامل لعدة أجيال.

وانظر إلى أهل القرى خلال السنوات الأخيرة، لقد ازدادت فضلاتهم بمجرد أن أصبح لديهم بعض الأموال؛ فتنتشر فى القرى الآن الأكياس البلاستيكية التى تملأ الأنهار وتغطى أفرع الأشجار، وإذا ما هبت ريح قوية طارت بها إلى السماء، وكأن خبر ثراء أهل القرى قد تجاوز الأرض إلى السماء.

ولم ير لى دا فى حياته ما يذكره الناس عن جبال من ذهب وجبال من فضة، وكل ما يعرفه فقط هو أن قمامة المدينة هى له أعظم من جبال الذهب، هى جبله الذى لن ينضب لأجيال وأجيال.

وبينما هو يسبح فى عالم الخيال، إذ رفصت قدمه شيئا ما، فركله لى دا بقدمه إلى جانب الطريق، ثم جلس القرفصاء وراح يتحسس ذلك الشىء، فلامست قدمه فى أول الأمر التراب، ثم إذا به يلمس شيئا صلبا فى حجم نصف علبة السجائر، فالتقطه لى دا وفر مسرعا إلى أسفل عمود الكهرباء، وأخذ يتفحصه وفجأة تأوه: يا إلهى، لقد تحققت أمنيتى، إنه تليفون محمول!

ولا يزال لى دا غير متأكد من أن الذى عثر عليه هذه المرة هو تليفون حقيقى أم مزيف؟ أم هو مجرد لعبة؟

وعندما زاره العجوز لى دا بيده، وجد أنه جهاز بسيط خفيف الوزن وذو غطاء فضى لامع، فراح يحركه يمينا وشمالا ولا يصدر منه أى صوت، فمضى يفكر فى أنه حتى ولو كان تليفونا حقيقيا أتراه معطلا أم أنه فى حالة جيدة؟ وإذا ما كان جيدا كيف يلقى به صاحبه فى عرض الطريق؟ وإذا ما كان معطلا، فهل سأصرف عليه مالا لصيانته؟ وبمن سأتصل؟ بل وعلىّ أيضا أن أدفع تكاليف الاتصالات.

وعندما جلس يستريح إلى حاشية إسمنتية على جانب الطريق، راح يقلب التليفون بين يديه، وكأنه يقلب واحدة من ثمار البطاطا الساخنة.

وفجأة بدأت واحدة البطاطا تهتز على راحة يده، ثم أحدثت صوتا أفزعه، حتى إنه كاد أن يطرحها أرضا، وعلا الصوت يدوى

كصوت ميكروفون الإذاعة، بل وبدا الصوت مزعجا وسط الهدوء التام الذى خيم على منطقة فيلات شيو شوى ليلا، فأحكم لى دا قبضته على التليفون، وود أن لو استطاع أن يكتم صوته، وعندما فشل فى السيطرة على التليفون، راح التليفون يهز جميع أرجاء المكان، عندئذ تأكد لى دا من أن التليفون هو مصدر هذا الصوت المرتفع وأنه يردد كلمات:

أعلى جبل جين شان ببكين، تعم الأضواء جميع الأرجاء!

أعلى جبل جين شان ببكين، تعم الأضواء جميع الأرجاء!

واحتار لى دا فى أن يكتم صوت التليفون الذى أبى إلا أن يستمر فى الغناء بصوت مرتفع، وبلل العرق راحة يده، ولكنه لم يتوصل بعد إلى مفتاح كتم الصوت.

وبعد أن ترددت كلمات الأغنية بضع مرات، سكت الصوت فجأة، فراح لى دا يأخذ نفسا عميقا بعد أن احتار فى أمر صوت التليفون، وما إن همَ بوضع التليفون فى جيبه، حتى سمع وقع خطوات أقدام تقترب منه؛ إنه رجل أمن، مربع الوجه، يلوح تجاهه ببطارية يد قائلا: أنت يا هذا، أخرج التليفون!

فانفجر لى دا غاضبا.

ورد رجل الأمن: لقد سمعت صوت التليفون، فهل تنكر ذلك؟

فاعترض لى دا على كلامه قائلا: تقول سمعت؟ ولماذا لا تسمعه الآن؟ فلتجعله يرن لكى أسمعه! وفجأة عاد التليفون يغنى وكأن لى دا قد أعطى له إشارة البدء: أعلى جبل جين شان ببكين، تعم الأضواء جميع الأرجاء.

فاندفع لى دا يحاول كتم الصوت، ولكن رجل الأمن سبقه وأدخل يده فى جيب لى دا وأخرج التليفون، ثم فتح غطاءه بسرعة ومضى يتحدث: لقد عثرت على التليفون، فلتأتوا لاستلامه، أنا الآن جنوب شرق البناية رقم ١٨.

وكان من حماقة العجوز لى دا، أن يخفى عليه أن غناء التليفون كان فى حد ذاته إبلاغا عن مكانه، وبعد لحظات قليلة، ظهر شاب وفتاة قادمين نحوهما وقد بدا عليهما الغضب الشديد، وما إن اقتربا منهما، حتى سلم رجل الأمن التليفون إليهما وسألهما: هل هذا التليفون هو ذلك الذى تبحثان عنه؟ فاستلمه الشاب وأجاب بنعم، وذلك بعد أن قلب التليفون جيدا بين يديه يتأكد منه، وأضافت الفتاة: إن تليفوننا ينفرد بهذه الأغنية القديمة المميزة، نعم إنه هو الذى نبحث عنه.

وبعد أن انتهى الشاب والفتاة من الإجابة عن سؤال رجل الأمن، وقبل أن يغادرا المكان، سألا رجل الأمن: وكيف عثرت على التليفون؟ فأشار رجل الأمن إلى العجوز لى دا، ثم أضاف أن لى دا لم يعترف فى البداية أن التليفون معه، لولا سماع صوت رنين التليفون الذى كشف أمره.

فصاحت الفتاة فى وجه لى دا قائلة: أيا هذا، ألم تعلم مدى قلق أى إنسان إذا ضاع منه شىء يخصه، وعلق الشاب بصوت: ومن يعلم إن كان عثر عليه أم سرقه، فمنذ قليل لمحت هذا العجوز يتسلل ويمر بجانبنا، وقبل أن ينهى الشاب كلامه، ألقى بضربة يد إلى صدر لى دا، فحاول لى دا تفادى الضربة الموجهة إلى صدره فأصابت كتفه، وهنا اشتاط لى دا غضبا، فأحكم هو الآخر قبضته وتوجه ناحية الشاب، ولكنه اصطدم برجل الأمن الذى منعه عن الشاب.

فارتجفت جميع أعضاء جسم لى دا وراح يتمتم: كيف تظلموننى؟ لقد عثرت على هذا التليفون فى عرض الطريق، وأنا أقوم يوميا بجمع القمامة فى هذه المنطقة، وفجأة أحس ببعض القلق فأسرع بإخراج الناموسية من تحت إبطه، وراح يلوح بها أمام وجهه. واكتشف أن رجل الأمن والشاب والفتاة يرمون الناموسية بنظرات حادة، بل وينظرون إليه من أطراف أعينهم، وفى الحقيقة أنه كان قد تعود على هذه النظرات منذ أن جاء إلى المدينة منذ ستة أشهر. فسارع يغير صيغة خطابه معهم حيث قال: وليس لكم الحق فى أن تمزحا معى بهذه الطريقة، فالسرقة شىء وجمع الأشياء شىء آخر، فجمع الشىء هو العثور عليه، ومن يجمع شيئا فهو له. نعم جمعه وليس سرقته، لأن السرقة مخالفة للقانون، ونحن نفضل الموت فقرا على أن نسرق.

فقاطعه الشاب: ولكن ما يمكن جمعه من القمامة هو الشيء المتعطل فقط، وهذا التليفون في حالة جيدة تماما، وإن كنت قد عثرت عليه كما تقول، فكان عليك أن تعيده إلى صاحبه، وإذا لم تعده فستكون قد أخذته، ولاحظ أنني أذكر لك كلمة أخذته التي ربما تكون أفضل في سماعها من غيرها، وإذا ما قلت سرقته فلا حرج فهذه هي حرفتك، ولابد أن نثني عليك، ولا أحد يلوم الشحاذ الذي يركع عند محطات مترو الأنفاق ويمد يديه يسأل الناس، فهو بالتأكيد لا يخالف القانون. ثم قال الشاب: أيها العجوز، اركع أمامي وسأهديك هذا التليفون!

فحبس لي دا غيظه في صدره، وارتفعت حرارة جميع أعضائه، وود أن لو يصفع الشاب على وجهه صفعة تسقطه أرضا.

وعندما بدأ التليفون يغني من جديد: أعلى جبل جين شان ببكين.. فتحته الفتاة وراحت تتحدث إلى شخص ما، ومضت تثرثر في التليفون، ثم أسرع الشاب نحوها واحتضنها وسارا بعيدا عن لي دا، أما رجل الأمن فراح يسأل لي دا بلهجة مثل لهجة قريته تماما قائلا: اصدقني القول، من أين تدخل إلى هذه الحديقة كل يوم؟

فأخذ لي دا يسعل بشدة ثم رد قائلا: وما شأنك أنت؟ وتجمع غيظ لي دا كله في فمه، فراح يملأ الأرض ببصاقه، ثم أدار جسده وغادر المكان. ولكن رجل الأمن مضى يلاحقه، فازداد لي دا غضبا،

فتعمد أن يحوم حول المبنى لكى يرهق رجل الأمن، حتى اختفى من خلفه تماما. وعندما تذكر لى دا حفيدته الصغيرة التى لا تزال نائمة فى المنزل، هب مسرعا نحو سور الحديقة، وفى طريقه إلى السور، اصطدمت قدمه بشىء صلب، فلعنه لى دا، ثم حمله إلى أسفل عمود الكهرباء وراح يمعن فيه النظر. فاكتشف أنها مصفاة حديدية تستخدم فى مشروعات الصرف الصحى. فألقى بها جانبا وانشغل بتنظيف قدمه مما علق به من قاذورات، ثم تأكد من أن هناك من قام بفتح المصفاة، وأنه بالتأكيد يستعد لنقلها ليلا، فوقف فوق المصفاة وراح يمسح المكان بنظرات حادة حتى تأكد من أن الظلام قد خيم على جميع أرجاء المكان، فقام بحمل المصفاة على كاهله وسار وهو يتألم من ثقلها، حتى تمكن من نقلها إلى خارج سور الحديقة، ثم أسرع الخطى عائدا إلى منزل ابنه، وأخذ يفكر فى أنه لا بد وأن يذهب غدا إلى مستودع نفايات بعيد عن هذه المنطقه لبيع هذه المصفاة، وبينما هو فى طريق العودة إلى منزل ابنه كان يتمتم: يا ابن الحرام، سأجعلك تعرف جيدا ما السرقة، وما العثور على الأشياء، وما أخذها! وإننى بالتأكيد كنت قد عثرت على التليفون فى الطريق، وأنت تصر أننى سرقته، فسأسرق لكى ترى حيلتى، بل وسأختلس بنكا!

وعندما وصل لى دا إلى الضاحية حاملا المصفاة، كان قد تصبب جسده عرقا، وما إن اقترب من المنزل حتى اكتشف أن ابنه لم يعد

من عمله بعد، فالغرفة لا تزال مظلمة، وأخرج من جيبه مفتاح الغرفة، ولكن باب الغرفة فتح قبل أن يحكم وضع المفتاح فى الكالون. فدخل لى دا الغرفة وهو فى قلق شديد، وقبل أن تصل يده إلى مفتاح الكهرباء، أحس أن الغرفة ينقصها شىء ما، فلم تصطدم رأسه بأى شىء فى سقف الغرفة، وعندما أضاء نور المصباح، ذهل لى دا من هول ما رأى.

فلم يعد هناك أثر لجميع الأجولة البلاستيكية التى كانت معلقة فى سقف الغرفة، وكأنها كالغربان التى طارت جميعها فجأة من على كابل كهربى إثر صعقة شديدة، ثم راح يتفحص أسفل السرير، فوجده فارغا تماما، ولم ير إلا آثار سحب الأجولة الثلاثة التى كانت موضوعة أسفل السرير.

وقد بدت الغرفة الآن متسعة وفارغة تماما كأول يوم دخلها قادما من محطة القطار، لقد ضاعت جميع الأشياء التى أنفق فى جمعها أكثر من ستة شهور، ضاعت جميعها فى ليلة واحدة، لقد كانت جميعها أشياء مفيدة، كان ينوى أن يحملها إلى مسقط رأسه ويوزعها على أفراد أسرته، فكيف تختفى فى لمح البصر؟ كيف أخذوها بهذه السرعة؟ لا، إنهم لم يأخذوها، بل سرقوها! إنه شخص عديم الضمير ذلك الذى سرق ما قمت بجمعه خلال تلك الأيام الطويلة!

وشكّ لى دا فى الأعرج، ولكنه عاود يسأل نفسه: كيف يمكن

لشخص أعرج مثله أن يحمل كل هذه الأشياء؟ وكانت الصغيرة نى تسه لا تزال غارقة فى نومها أعلى السرير الخشبى. وحاول لى دا أن يوقظها من نومها، ولكن يبدو أنها كانت تغط فى نوم عميق جدا، ولن يوقظها منه ولو صوت الرعد الشديد، فاشتاط غضبا وراح يعبث بمفروشات السرير، حتى سقطت نى تسه من أعلى السرير، وأخيرا فتحت نى تسه عينيها وراحت تنظر إليه، فسألها إن كانت رأت أحدا جاء إلى الغرفة أثناء وجوده خارج المنزل، فأجابته وهى تحاول جاهدة أن تفيق من نومها، بأنها رأت فى الحلم بعض الشيوخ المسنين كالبابا نويل، وقد كانوا جميعا يتحدثون بلهجة مثل لهجة بلدتنا، فتركها لى دا واندفع إلى خارج الغرفة.

وجلس لى دا على الأرض، ووضع رأسه بين يديه، فهو يعلم أن كثيرا من بلدياته ينتشرون فى الأماكن القريبة من هذه القرية، ولكن من يعلم هوية أعمالهم؟ بل وإن أمثال هؤلاء الناس قادرن على سرقة بقرة حية والسير بها فى عرض الطريق دون أن يُسمع لهم صوت. وهو الآن لا يلوم إلا نفسه، فلم يأخذ حذره من هؤلاء؛ حيث كان دائما ما يذكر لهم أن ما جمعه من أشياء ليست خردة وإنما هى أشياء جيدة ومفيدة، بل ويبدو أن قمامة الفيلات التى جمعها لم تكن تكفى جميع أفراد أسرته، وكان هناك غيره ممن هو فى أمس الحاجة إليها، ولم يكن قد سمع من قبل أن هناك من يسرق القمامة، ولكنه الآن سُرق، فسرقته تعنى أنه أغنى من بلدياته

جميعا، بل وإنه أغنى من كثيرين غيره. فياللعجب، إنه منذ أن جاء إلى المدينة وهو منهمك ليل نهار فى جمع القمامة، فلم يتسول أو يسرق قط، ولكن انتهى به الأمر إلى أن يعثر على لص يسرقه داخل بيته، فهو لا يدرى إن كان يفرح لذلك أم يغضب.

وعادت الصغيرة نى تسه إلى النوم مرة أخرى، فنظر إليها لى دا وراح يفكر فى نفسه أن هؤلاء اللصوص تحلوا ببعض الضمير، إذ إنهم لم يؤذوا حفيدته الصغيرة، وكان مما خفف من غضبه أيضا أن تذكر أنه كان قد أعطى ابنه شوان تسه كل المال الذى باع به بعض من النفايات ليدخره له.

ودفع لى دا الباب بعنف وخرج يلف فى القرية واضعا يديه خلف ظهره، ولاح له القمر هناك وسط السحب التى غطت تلك الفيلات على جانبى النهر، وقد بدت الفيلات وكأنها غُطيت بطبقة من البلاستيك لحمايتها، ورجع بذاكرته إلى مشهد شاهده قبل ستة أشهر مضت عندما غادر قريته، حيث كان يومها قد استيقظ مبكرا وذهب إلى حقول القمح، وكان القمر قد سبقه إليها، وبدا كمصباح كبير يضىء القرية بأكملها، وبدت حقول القمح مضيئة تحت نور القمر وكأنها غُطيت بطبقة بلاستيكية لحمايتها، ولكن ما إن هبت رياح عتية، حتى اختفت خضرة عيدان القمح التى دائما ما يراها فى النهار، فجلس لى دا على الأرض ومد يده إلى عيدان القمح ليقبض على طبقة البلاستيك، ولكن لم تقبض يده على شىء، ثم

عاود حركة يده مرة أخرى فقبض على بعض من براعم القمح الصغيرة، فقد أطاحت الرياح العتية بالطبقة البلاستيكية التى كانت تغطى عيدان القمح، ومضى يداعب بيديه أوراق القمح الرقيقة، حتى تأذت تلك البراعم النضرة من حركة يدية الغليظتين، عندئذ تأكد لى دا أن قمر اليوم لم يكن قمرا حقيقيا، فقد خدعته تلك الطبقة البلاستيكية التى غطت عيدان القمح، فمضى يفكر فى سنابل القمح الممتلئة التى يمكنه إذا ما قرب أذنه إليها أن يستمع إلى صوتها الرقيق، ثم راح يتأمل حبات القمح الذهبية التى بدت مثل مياه النهر التى تنساب فى كل مكان، حتى بدت السنابل الجميلة كالبدر ليلة اكتماله، ونضج القمح وحان موعد حصاده، وبُذرت الذرة بعد القمح، ومر عليها ستة أشهر وحان موعد الحصاد.

وجلس لى دا أعلى حاشية ترابية يتأمل جمال القمر، وفجأة وخذتْهُ عَيناه، وأحس كأنها تحسه على العودة لجمع محصول الخريف، ولكنه أصبح الآن صفر اليدين ولا يملك سوى هذه الساعه فى يده، والتى إذا أهداها إلى ابنه سو تسه غضب منه أخيه ليان تسه، فما العمل؟ أيمكن أن يقسم الساعة إلى نصفين؟ يبدو أنه لابد وأن يعود إلى المدينة مرة أخرى بعد جمع محصول الخريف، لكى يبحث عن ساعة أخرى يهديها لابنه ليان تسه، وراح يسأل نفسه: إذا هل ستعود إلى المدينة مرة أخرى بعد موسم

الحصاد؟ وإن لم تأت إلى المدينة، فأين ستذهب؟ على كل حال، فإن هذه الفيلات تمتلأ يوميا بالقمامة، وإنك بالتأكيد ستتمكن من جمع كل ما تريد؛ ففى المدينة فقط توجد جبال الذهب والفضة التى تعم جميع الأرجاء، وهنا أحس لى دا أن تلك الأغنية التى سمعها من ذلك التليفون، تبدو الآن مألوفة إلى أذنيه، وكأنه سمعها كثيرا من قبل، فمضى يفكر فى تلك الأغنية، ولكنه لم يتوصل إلى نتيجة جديدة.

شيانغ شويه

بقلم: تييه نينغ

قبل اختراع القطار ومد خطوط السكك الحديدية إلى المناطق الجبلية، لم يكن يخطر ببال أحد أن هناك قرية تسمى تاى إر قو، فقد كانت تلك القرية تتوارى بسكانها الذين يزيد عددهم قليلا عن عشر عائلات، كانت تتوارى داخل الكهوف الجبلية قانعين بما قُدر لهم، يعانون فى صمت وسط تلك المناطق الجبلية الوعرة تقلبات الفصول الأربعة.

وأخيرا تم مد خطين من خطوط السكك الحديدية الرقيقة المضيئة، والتى راحت تصعد فى شجاعة إلى أعالى سفوح الجبال الوعرة، واستمرت تمضى إلى الأمام فى خطوط ملتوية، حتى بلغت قرية تاى إر قو، ثم إلى النفق الجبلى المظلم الهادئ، ثم إلى أعالى الجبال، حتى راحت تسبح فى ذلك الأفق البعيد الغامض.

ولم يكد يمر وقت طويل حتى تم افتتاح هذا الخط رسميا، وتكدس الكثير من الناس هنالك عند مدخل القرية لمشاهدة هذا

التنين الأخضر الذى كان تصدر عنه أصوات عالية، والذى جاء إليهم يحمل الكثير من الغرباء عن القرية، وبموجات من النسيم الذى أنعش جو القرية الكئيب، وكان ذلك التنين الأخضر يمر فى عجالة سريعة من أمام قرية تاى إر قو، ويسير بسرعة مذهلة، حتى يخيل إليك من شدة سرعته أن عجلاته كانت تصيح قائلة: لن أتوقف، لن أتوقف! نعم لم يكن هناك ما يحثُّها على التوقف عند قرية تاى إر قو، فهل يوجد بين أهلها من ينوى السفر؟ أم هناك منْ جاء يقصدها لزيارة قريب أو صديق؟ أم هل أنها تختزن احتياطى من النفط والمعادن النفيسة؟ إن تاى إر قو فقيرة من أى شىء يجبر القطار على التوقف عندها ولو دقيقة واحدة.

ولا أذكر منذ متى بالضبط تم إضافة اسم قرية تاى إر قو إلى جدول محطات القطار، وربما كان ذلك قد تم بناء على طلب من المسافرين، والذين من المحتمل أن يكون من بينهم من يملك النفوذ، وتربطه صلة قرابة أو صداقة بالقرية، وربما يرجع السبب إلى عامل القطار الذى كان قد وقعت عيناه على تلك المجموعة من فتيات تاى إر قو الجميلات اللائى تتراوح أعمارهن ما بين السابعة عشرة والثامنة عشرة، واللائى كن يقفن كل يوم فى جماعات عند مدخل القرية يحدقن النظر فى القطار، وإذا ما دخل القطار محطة تاى إر قو، كنت تستمع إلى أصواتهن العذبة، بل وربما كان السبب

وراء إضافة محطة تاى إر قو إلى محطات القطار هو صغر القرية الذى كان يثير الشفقة تجاهها، حتى إن التنين الحديدى العملاق كان لا يستطيع أن يتعداها دون أن يقف عندها إشفاقا على حالها البسيط. وخلاصة القول، فقد أضيف اسم تاى إر قو أخيرا إلى جدول محطات القطار، وكان يتوقف عندها يوميا ذلك القطار المتوجه من العاصمة بكين إلى مقاطعة شانشى فى تمام الساعة السابعة مساء لمدة دقيقة واحدة.

وقد استطاعت هذه الدقيقة تحطيم السكون الموحش الذى كان يخيم على القرية من قبل، فقبل إدراج اسم القرية ضمن البلاد التى يتوقف عندها القطار، كان أهل تاى إر قو يلبون جميعا وفى وقت واحد نداء الجبل، ويخلدون إلى فراشهم فور تناولهم وجبة العشاء. وفى ذلك الوقت، كان السكون يكسو مساكن القرية الحجرية الصغيرة والتى كانت تبدو فى صمت رهيب، وكأنها بذلك تكشف للجبل عن إخلاصها له. أما الآن، فما إن يحين وقت العشاء وتنشغل فتيات القرية بإعداد الطعام وحمله إلى المائدة، حتى يتذكرن موعد القطار فتسارع كل منهن وتأكل لقيمات قليلة فى عجالة، ثم تلقى بطبق الطعام وتمضى تنشغل بتصفيف شعرها وتتزين، وتغتسل كل منهن مما علق بها من غبار طوال اليوم، وتظهر كل فتاة منهن وجها خشنا متوردا وشعر طويلا لامعا، ثم يبدأن التسابق فى لبس أفضل الثياب، ومنهن من كانت تجازف وتنتعل حذاءها الجديد، والذى

كانت عادة ما تتعله فقط فى موعد الاحتفال بعيد الربيع[1] من كل عام، ومنهن من تضع خلسة المساحيق على وجهها، وقد كانت الفتيات يهتممن كثيرا بملبسهن ووجوههن، وذلك على الرغم من أن القطار كان يصل إلى محطة القرية وسط ظلمة الليل، وكن ينطلقن بسرعة تجاه مدخل القرية وفى اتجاه خط السكة الحديد، وكانت شيانغ شويه دائما هى الأولى بين فتيات تاى إر قو فى الخروج إلى محطة القطار، تليها فى ذلك جارتها فينغ جياو.

وفى تمام الساعة السابعة مساء دخل القطار محطة قرية تاى إر قو، وبعد أن صدرت عنه أصوات عالية، تبعتها حركة اهتزاز عرباته، أخيرا توقفت عجلاته عن الحركة، وأسرعت الفتيات نحو القطار وراحت كل منهن تنظر عبر النوافذ إلى داخل القطار، وكأنها تشاهد فيلما سينمائيا. وكانت شيانغ شويه هى الوحيدة التى آثرت أن تكون فى مؤخرة زميلاتها ولم تقترب من نوافذ القطار، واكتفت

---

(١) عيد الربيع: هو أكبر وأهم عيد تقليدى فى الصين، ويطلق عليه أيضا عيد رأس السنة الجديدة، ويوافق أواخر الشهر الثانى عشر من العام القمرى حتى حوالى منتصف الشهر الأول من العام القمرى الصينى كل عام، والذى يكون متأخرا حوالى شهر عن العام الميلادى، وتعطل فيه جميع الدوائر الرسمية لمدة أسبوع كامل، وحيث يخرج الصينيون للاحتفال بهذا العيد الكبير ويضعون الملصقات الحمراء على جدران المنازل والمتاجر وفى الشوارع، وتدوى أصوات المفرقعات النارية، كما تنتشر على الموائد بعض الأطعمة الخاصة بهذا العيد. (المترجم)

بوضع يديها على أذنيها تمنع عنها ضوضاء الأصوات المزعجة التى عمت المكان، وعلى الرغم من أن شيانغ شويه كانت دائما هى الأولى بين زميلاتها فى الوصول إلى المحطة، فإنها كانت إذا ما وصل القطار إلى المحطة، كانت تؤثر أن تكون آخر من يقترب منه، فقد كانت تخشى كثيرا قاطرته الكبيرة التى كانت ترسل كميات كبيرة من الدخان الأبيض الكثيف، وكأن بإمكانها أن تبتلع القرية فى فم واحد، كما كان يفزعها كثيرا صوت القاطرة المزعج الذى كان يهز السماء ويزلزل الأرض، حتى إن شيانغ شويه كانت ترى نفسها أمامها وكأنها عشبة ضعيفة لاحول لها ولا قوة.

"شيانغ شويه، انظرى!" شدت فينغ جياو شيانغ شويه إليها وأشارت إلى رأس امرأة تجلس داخل القطار، وكانت بالضبط تشير إلى طوق ذهبى تعتمد عليه المرأة فى لم شعرها الطويل المرسل.

فزرت شيانغ شويه عينيها قائلة: "كيف إننى لا أرى شيئا"

"تلك المرأة التى فى الداخل ذات الوجه المستدير، انظرى إنها تلبس أيضا ساعة يد صغيرة جدا"، وهنا اكتشفت فينغ جياو علامة جديدة تتميز بها المرأة.

فهزت شيانغ شويه رأسها فى صمت، ولكنها أخيرا رأت الطوق الذهبى المثبت أعلى رأس المرأة، ورأت أيضا الساعة الصغيرة

المعلقة فى يدها، ولكن شيانغ شويه اكتشفت بسرعة شيئا جديدا لفت انتباهها، إنها "حقيبة كتب جلدية"، حيث أشارت إلى حقيبة كتب مدرسية من الجلد الصناعى سوداء موضوعة أعلى رف الأمتعة، حقيبة مدرسية عادية من تلك الحقائب التى يمكن أن تراها منتشرة حتى فى المدن الصغيرة.

وهنا التفتت الفتيات بسرعة نحو شيانغ شويه، وذلك على الرغم من أنهن كن من قبل لا يبالين بما تكتشفه شيانغ شويه.

"آه، يا أمى، لقد دهستِ قدمىّ!" صاحت فينغ جياو تلوم فتاة داست قدميها وسط الزحام الشديد حول القطار، وحيث كان الصياح بصوت عال عادة تتميز بها فينغ جياو بين صديقاتها.

فردت الفتاة التى داست قدمىّ فينغ جياو بنبرة قوية قائلة: "كيف تصيحين هكذا، كل هذا لأجل أن تثيرى انتباه ذى البشرة البيضاء لكى يبدأ معك حوارا مطولا؟".

"سأقطع لسانكِ!" سبتها فينغ جياو بينما كانت تسترق النظر إلى باب العربة الثالثة بالقطار.

ونزل عامل القطار الشاب ذو البشرة البيضاء، وكان شابا عريض المنكبين، طويل القامة، ذا شعر أسود لامع، يتكلم بلهجة بكينية سليمة. وربما كانت لهجته هذه هى السبب فى أن تنعته فتيات القرية فيما بينهن بصاحب "لهجة بكين"، ووقف "لهجة بكين"

على مسافة منهن وهو يضع يديه حول صدره ويصيح فيهن: "أيتها الفتيات الصغيرات لا تتعلقن بالنوافذ، هذا خطر عليكن!"

"أوه، نحن صغيرات، وهل أنت عجوز؟" ردت عليه فينغ جياو بجرأة شديدة.

وهنا تعالت أصوات ضحكات صديقاتها، وغلبت عليهن حالة من الهرج والمرج، حتى إن واحدة منهن دفعت فينغ جياو إلى الأمام حتى كادت تصطدم بالشاب، الأمر الذى زاد من جرأة فينغ جياو وجعلها تستمر فى سؤاله: "يا هذا، ألا تصابون بالدوار من طيلة بقائكم داخل القطار؟"

"ما فائدة ذلك الشىء الذى يشبه الشفرات الحادة المعلقة بسقف القطار؟" سألته فتاة أخرى وهى تشير بيدها إلى المروحة المعلقة داخل عربة القطار.

"وأين مياه الشرب؟"

"ماذا يحدث لو سار القطار إلى مكان مهجور؟"

"كم وجبة تأكلون يوميا فى المدينة؟" سألته شيانغ شويه بصوت منخفض بينما كانت تتخفى خلف صديقاتها.

"يا لكن من فوضويات!" قالها الشاب بينما كان يقف حائرا يتمتم وسط جماعة الفتيات.

وعندما اقترب موعد تحرك القطار، أفسحت الفتيات الطريق أمام الشاب، والذى ينظر فى عجالة إلى ساعة يده، وهو يجرى فى اتجاه باب القطار، وما إن وصل إلى الباب، حتى التفت إليهن قائلا: "المرة القادمة سأخبركن، فى المرة القادمة سأجيب عن أسئلتكن!" ثم قفز بقدميه الطويلتين إلى داخل القطار، وراح يغلق باب القطار. وغاص القطار من جديد فى الظلام، وتركهن إلى جوار قضبان السكة الحديد، وبعد أن غادر القطار المحطة بوقت طويل، كن مازلن يستمعن إلى حركة عجلاته التى كانت تهز القضبان القريبة منهن.

وعاود المكان سكونٌ مخيف، وسارت الفتيات فى طريق العودة إلى بيوتهن، وفى الطريق كن لا يتوقفن عن المجادلة لأجل أمور تافهة!

"من تعرف عدد الأطواق الذهبية التى كانت تستخدمها المرأة فى تثبيت شعرها؟"

"ثمانية".

"تسعة".

"خطأ!".

"صح!".

"وما رأيكِ يا فينغ جياو؟"

"إنها لا تزال مشغولة بـ"لهجة بكين"! ردت إحداهن لتداعب فينغ جياو.

"اللعنة عليك، إن من تقول هذا فهى التى لا تزال تنشغل به". دافعت فينغ جياو عن نفسها، ثم راحت تضغط على يد شيانغ شويه تطلب منها أن تقف فى صفها.

ولكن شيانغ شويه لم تنبث ببنت شفة، بل احمر وجهها خجلا. فهى فى السابعة عشرة من عمرها، ولم تتعلم بعد كيف أن تساند الآخرين أثناء جدالهم.

"إن بشرته شديدة البياض!" لا تزال تلك الفتاة تداعب فينغ جياو.

"شديدة البياض؟ أيخفى عليك أنه يختبأ يوميا داخل تلك العربة الخضراء، آه لو جاء إلى قريتنا يجرب العيش فيها بضعة أيام". هكذا قالت إحدى الفتيات اللاتى كان يخفى وجوههن الظلام.

"نعم، إن أهل المدينة يتميزون بالاختفاء وراء الأشياء، وإذا ما تحدثنا عن بياض البشرة فلنقارنهم بصديقتنا شيانغ شويه، فإن لها بشرة بيضاء طبيعية.

ولم ترد عليها فينغ جياو، بل راحت تسحب يدها من يد شيانغ شويه، وكم كانت هى ترغب من أعماقها أن ترد عليهن؛ حيث شعرت أنهن يسخرن من شخص عزيز عليها، وراحت تجزم فى نفسها أن

بياض بشرته طبيعى، وليس بسبب اختفائه داخل القطار لوقت طويل.

وفجأة هبت شيانغ شويه مسرعة تضع يدها فى يد فينغ جياو وهى تغمز إلى فينغ جياو أن تقبض على يديها، وكأن شيانغ شويه تريد أن تلفت انتباههن أنها هى السبب فى أن يضايق الآخرون صديقتها فينغ جياو بمثل هذا الكلام.

"فينغ جياو، أخرسَ لسانكِ؟" ما زالت تلك الفتاة تداعبها.

"منْ الأخرس! ومنْ مثلكن تهتم هكذا بوجوه الآخرين وتفرق هذا أسود وهذا أبيض، فمادمتم تعجبون به هكذا، فمن الممكن أن تصحبنه إلى المدينة!" ردت فينغ جياو بلهجة لاذعة.

"نحن لا نناسبه!"

"وهل تضمنى أنه ليس لديه صديقة؟"

وبغض النظر عن حدة جدالهن فى طريق العودة من المحطة، فقد ساد بينهن جو من الألفة والمودة عندما افترقن كلٌ إلى منزلها، حيث كانت تشغلهن فكرة واحدة، وهى أن القطار سيمر من هنا غدا، وأنهن سيتمتعن بدقيقة جميلة، فهل يعقل أن تقارن تلك الدقيقة الجميلة بمثل هذه المضايقات العابرة؟

آه منكِ دقيقة مليئة بالمتناقضات، لكم احتويتِ من البهجة والحزن الذى يثير قلوب فتيات قرية تاى إر قو!

وبمرور الأيام، أصبحت هذه الدقيقة أكثر جمالا، وازدادت سعادة الفتيات بها، فقد بدأن يحملن خلالها بعض السلال مستطيلة الشكل مصنوعة من أغصان الصفصاف ممتلئة بالخوخ والبيض والعنب، ثم يقفن أسفل نوافذ القطار ويبدأن رحلة التجارة مع ركاب القطار. وكن يقفن على أطراف أقدامهن ويرفعن بالسلال التى يحملنها ويستبدلن محتوياتها بالشعرية الجافة وعيدان الكبريت الذى يندر وجوده فى القرية وغيرها من الأشياء التى تخصهن، كدبابيس الشعر والصابون، وفى بعض الأحيان، كان من بينهن من تخاطر ولا تبالى بما يمكن أن تلاقيه من توبيخ أهلها لها، وتستبدل ما تحمله بالمناديل متعددة الألوان والجوارب النايلون المطاطة.

وكأن الجميع قد اتفق على أن ترتبط فينغ جياو بذلك "لهجة بكين"، فقد كانت فى كل يوم تحمل سلتها وتذهب تبحث عنه وسط الزحام، بل وكانت تتعمد التباطؤ أثناء التجارة معه، وعندما يهم القطار بالتحرك، تلقى له بكل ما تحمله من البيض، وإذا ما تحرك القطار ولم يتمكن من أن يدفع لها ثمن البيض، فإنه سيقابلها غدا ويدفع لها، وهذا ما كانت تتمناه كل يوم.

وكان إذا ما قدم إليها حزمة من الشعرية الجافة ومنديلين، كانت فينغ جياو تنتقى جزءا من الشعرية وتعيده إليه، وبذلك كانت تشعر أنها تحافظ على ماء وجهها فى التعامل معه، فهى ترغب فى أن تختلف تجارتهما عن التجارة مع أى شخص سواه، وأحيانا كانت

تسرح بخيالها فيما تردد الفتيات: "وهل تضمنى أنه ليس لديه صديقة؟"وفى حقيقة الأمر، فإن فينغ جياو لم تكن تهتم بمثل هذا الأمر، بل إنها لم تفكر قط أن تغادر معه إلى المدينة، فهى فقط ترغب فى أن تكون بينهما علاقة طيبة، فهل يعقل أن يكون الحب وحده هو المبرر لأن تكون هناك علاقة ود وصداقة بين الناس بعضهم بعضا؟

وعلى الرغم من أن شيانغ شويه كانت قليلة الكلام وغير شجاعة، فإنها كانت أمهر صديقاتها فى أمور التجارة، ولقد أحب ركاب القطار التجارة معها، فقد كانت دائما ما تنظر إليك فى ثقة واطمئنان، وكأن عينيها الصافيتين تريدان أن تخبراك بأن هذه الفتاة التى تقف أسفل نافذتك طيبة، ولا تعرف طريق الكذب. كما كانت شيانغ شويه لا تحب أيضا المساومة فى البيع، وكانت فقط تقول للراكب منهم: "ادفع ما تراه مناسبا!" وحتما سيفيض قلبك بالمشاعر الرقيقة إذا ما نظرت إلى وجهها الغض، وشفتيها الجميلتين مثل الحرير، حتى يخيل إليك أنه وجه طفل جاء إلى الدينا منذ دقيقة واحدة، ولن تطاوعك نفسك أبدا أن تراوغ مثل هذه الفتاة الوديعة، وستتحول أمامها يدا أحرص الناس إلى فيض من السخاء.

وفى أحيان كثيرة، كانت شيانغ شويه تستغل أوقات فراغها وتروح تستفسر من الركاب عن بعض أمور المدينة التى تجهلها

فكانت مثلا تستفسر عما إذا كانت جامعة بكين فى حاجة إلى طلاب من قرية تاى إر قو، وعن ماذا نعنى بقولنا "قراءة فى أشعار بى له" (وكانت تلك جملة وقعت عليها عيناها مدونة على غلاف كتاب موضوع على طاولة أحد الركاب)، وذات مرة استفسرت من سيدة فى منتصف العمر ترتدى نظارة عن مقلمة أوتوماتيكية وعن سعرها، وفجأة وقبل أن تسمع رد السيدة على استفسارها تحرك القطار، فراحت شيانغ شويه تجرى مسرعة وراء القطار، وعندما سمعت صوت صفير الرياح وصدى صوت عجلات القطار يرن فى أذنيها، توقفت فجأة وأدركت سذاجة تصرفها، واختفى القطار عن مرمى العين فى لمح البصر، وما إن عرفت صديقاتها سبب جريها وراء القطار، حتى التففن حولها وعلت ضحكاتهن.

"يا لكِ من حمقاء!"

"لا يستحق الأمر منكِ كل هذا!"

بمثل هذه الكلمات رُحن يربتنَ على كتفها وينصحنها مثل الكبار. "اللوم كل اللوم على تباطؤى فى السؤال". هكذا راحت شيانغ شويه تؤكد أهمية الأمر بالنسبة لها، وهى تلوم نفسها أنها لم تستغل الوقت جيدا.

"وما هذا الذى كنتِ تسألين عنه؟" قالت فينغ جياو بينما كانت تساعد شيانغ شويه فى حمل سلتها.

"ومن لا يعرف أن صديقتنا شيانغ شويه تلميذة". هكذا راحت إحدى الفتيات تدافع عن شيانغ شويه.

نعم ربما كان ذلك لأن شيانغ شويه تلميذة، بل هى الوحيدة بينهن التى اجتازت امتحان القبول للصف الأول الإعدادى على مستوى قرية تاى إر قو.

ولم يكن يوجد بهذه القرية مدرسة إعدادية، لذا فقد كان عليها أن تذهب يوميا إلى مدرسة الكومونة الشعبية على مسافة سبعة كيلو مترات ونصف من تاى إر قو، وعلى الرغم من أن قلة الكلام كانت من صفات شيانغ شويه، فإنها كانت تستمتع كثيرا بالكلام مع صديقاتها فى القرية، ولكن لم يكن بمدرسة الكومونة الكثير منهن، فعلى الرغم من أن المدرسة كان بها عدد غير قليل من الزميلات، فإن شيانغ شويه كانت دائما ما تشعر أن أحاديثهن وسلوكياتهن ونظراتهن، بل وضحكاتهن جميعها تقصد تحذير شيانغ شويه أن تعرف جيدا أنها جاءت من قرية صغيرة فقيرة، حتى إن الزميلات كن يتعمدن أن يسألنها مرارا: "كم وجبة تأكلون يوميا فى قريتكم؟" وعندما لم تكن شيانغ شويه تعى قصدهن، فكانت تجيب صراحة: "وجبتان". ثم تنظر إليهن فى مودة وتسأل: "وماذا عنكنَّ؟"

"ثلاث وجبات!" هكذا كانت إجابتهن المعهودة بثقة وشجاعة. وبعد ذلك كن كثيرا ما يشعرن بالشفقة والغضب تجاه غباء شيانغ

شويه وعدم فهمها لمقصدهن.

"وكيف تأتين إلى المدرسة دون مقلمة؟" هكذا واصلت الزميلات استجوابها.

"أليست هذه مقلمة". أشارت شيانغ شويه إلى حافة المنضدة التى تجلس عليها.

وفى الحقيقة كانت الزميلات قد عرفنَ منذ وقت طويل أن شيانغ شويه تتخذ من تلك العلبة الخشبية مقلمة تجمع داخلها أدواتها، غير أنهن كن دائما ما يتصنعن الدهشة ويتعمدن أن يسألنها عن المقلمة، حتى إن زميلتها فى المنضدة، كانت دائما ما ترفع مقلمتها البلاستيكية الكبيرة وتهزها محدثة صوتا مسموعا. وكانت مقلمة زميلتها مقلمة أوتوماتيكية، وقد اكتشفت شيانغ شويه بعد وقت طويل أن السر فى أنها كانت تفتح وتُغلق آليا، أنها كانت تحتوى فى داخلها على مغناطيس صغير، وعلى الرغم من أن مقلمة شيانغ شويه الخشبية كان قد صنعها لها خصيصا والدها النجار هدية التحاقها بالمدرسة الإعدادية، بل وكانت هى المقلمة الأولى من نوعها على مستوى القرية، فإنها لماذا كانت تبدو هكذا بسيطة وعتيقة إذا ما قارنتها بمقلمة زميلتها التى تجلس إلى جوارها فى المنضدة، حتى إن المقلمة الخشبية كانت إذا ما سمعت صوت حركة المقلمة الأوتوماتيكية، كانت تنكمش إلى حافة المنضدة من شدة

الخجل.

ولم تعد شيانغ شويه تقوى على الصمت وتحمل الإهانة، وكأنها فجأة أدركت مغزى أسئلة زميلاتها المتكررة، عندئذ أدركت حقيقة فقر قرية تاى إر قو، بل وأدركت أن الشىء لن يبدو جميلا ما دام فقيرا، لذا فقد كان لدى زميلاتها الجرأة فى أن يسألنها عن هذه الأمور مرارا وتكرارا. وراحت شيانغ شويه تحدق النظر فى مقلمة زميلتها، وراحت تخمن أنها جاءت بها من تلك المدينة الكبيرة البعيدة، وأنها بالتأكيد باهظة الثمن. ومضت تفكر هل يمكن أن تستبدلها بثلاثين بيضة؟ بل أربعين، خمسين؟ وفجأة راحت تلوم نفسها كيف أنها تجيز لنفسها التفكير فى العبث بما تحمله من البيض؟ ولم تكن أمها تخزن هذه الكمية من البيض لأجل أن تضيعها هى بهذه البساطة! ولكن لماذا لا يتوقف صوت المقلمة المغرى عن الرنين فى أذنيها؟

وما إن دخل الخريف حتى اشتدت برودة الرياح الجبلية وبدأ الظلام يدخل القرية مبكرا، ولكن هذه التغيرات المناخية جميعها لم تؤثر على التزام شيانغ شويه وصديقاتها بموعد قطار الساعة السابعة مساء. وكن كعادتهن يخرجن فى سترات قطنية زاهية، وكانت فينغ جياو تثبت شعرها الطويل ببنس شعر وردية اللون، كما كانت بعض من الفتيات يثبتن ضفائرهن ببنس أخرى مطاطية، وكانت تلك الأشياء جميعها جزءا مما حصلن عليه من ركاب القطار

مقابل كميات مناسبة من البيض والخوخ، وهكذا خرجن متزينات اقتداء بفتيات المدينة اللاتى شاهدنهن فى القطار، ووقفن إلى جانب خط السكة الحديد فى انتظام وكأنهن فى انتظار ضيف كريم جاء من مكان بعيد، أو كأنهن يتهيأنَ لحفلة استعراضية.

وتوقف القطار على المحطة، وبدأت تصدر عنه تنهدات عميقة، وكأنه يشكو من شدة برودة الطقس فى قرية تاى إر قو، بل إنه بدا على غير عهده بهذه القرية: حيث كانت نوافذه جميعها مغلقة، وكان الركاب جميعهم يحتسون الشاى ويتصفحون الجرائد تحت أضواء المصابيح الخافتة داخل القطار، ولم يهتم أىٌّ منهم بالنظر خارج القطار، حتى هؤلاء الركاب المعروفين الذين اعتادوا السفر عبر هذا الطريق، بدوا وكأنهم قد نسوا فتيات تاى إر قو تماما.

وكعادتها أسرعت فينغ جياو تجاه العربة الثالثة تبحث عن "لهجة بكين"، وهمت شيانغ شويه تحكم ربط الشال الأحمر على رأسها، وانشغلت بنقل السلة التى تحملها من يد إلى أخرى، ثم راحت تجرى بها بمحاذاة القطار، وكانت تحاول جاهدة أن ترفع قامتها آملة لفت انتباه الركاب، ولكنها لم تنجح فى جذب انتباه أى منهم، وفجأة اكتشفت ذلك الشىء الذى تتطلع إليه منذ زمن بعيد، اكتشفته ملقى هنالك أعلى منضدة مكدسة بالكثير من الأطعمة داخل القطار، حتى إن اكتشافه جعلها تتسمر فى مكانها ولا تقوى أن تغادره، وفجأة سقطت السلة من يدها، وبدأ قلبها يدق دقات سريعة

متواصلة وهى تتشبث بحديد نافذة القطار، وعندئذ تأكدت شيانغ شويه أن ذلك الشيء حقا مقلمة أوتوماتيكية، بل وإنها كانت على مقربة منها، وكان بإمكانها أن تأخذها بين يديها، إن لم يكن يفصل بينهما زجاج النافذة.

وأتت إحدى عاملات القطار، والتى بدا أنها امرأة فى منتصف عمرها، وأبعدت شيانغ شويه عن النافذة، ولكن شيانغ شويه ابتعدت وهى لا تزال تحمل سلتها وتواصل النظر إلى المقلمة داخل القطار. وما إن تأكدت أن المقلمة تخص تلك الفتاة التى تجلس بجوار النافذة والتى يبدو أنها طالبة، حتى هبت مسرعة تطرق على زجاج نافذتها. فالتفتت إليها الطالبة، ولكنها ما إن رأت تلك السلة المعلقة بيد شيانغ شويه، حتى راحت تلوح لها بيدها آسفة أنها لن تستطيع أن تفتح لها شباك النافذة، وفجأة أسرعت شيانغ شويه تجاه باب العربة، وما إن وصلت إلى الباب حتى راحت تتشبث بمقبض الباب. وقد أتى الجو المنعش المنبعث من داخل القطار على التوتر الذى كان يسيطر على شيانغ شويه، والتى كانت تجرى تجاه القطار بل وزادها ثقة واطمئنانا، فراحت تقلد "لهجة بكين" بأن قفزت على مهل إلى أعلى دواسة باب القطار، وعزمت على أن تقفز بأقصى سرعة إلى داخل القطار، وتستبدل المقلمة بما تحمله من البيض، وربما كانت الأربعون بيضة التى كانت تحملها هى الدافع وراء عزمها المفاجئ على صعود القطار.

وأخيرا تمكنت شيانغ شويه من الوقوف داخل القطار، ثم راحت تخطو فى حذر شديد أولى خطواتها إلى داخل عربة الركاب وهى تُحكم قبضتها على السلة، وأغلق شخص ما الباب وسط رجرجة عربات القطار المتواصلة، وعندما أدركت شيانغ شويه حقيقة ما حدث، كان القطار يبتعد عن تاى إر قو رويدا رويدا، فنظرت شيانغ شويه من زجاج باب القطار، فرأت وجه صديقتها فينغ جياو يمر من أمام عينيها مرورا خاطفا. وهنا أيقنت أن ما حدث لم يكن حلما بل كان حقيقة، فلقد فارقت صديقاتها، وأنها تقف الآن وحيدة داخل القطار الذى تعرفه بل وتجهله فى الوقت نفسه، ولكنها تخشى أن تكسر زجاج الباب وتشكو إلى فينغ جياو: "فينغ جياو، ما العمل، ماذا أفعل؟"

وراح القطار يحمل شيانغ شويه وهو ينطلق بسرعة شديدة، حتى ابتعد كثيرا عن تاى إر قو، وكانت المحطة القادمة التى سيقف عندها هى شى شان كو، وكانت تبعد مسافة خمسة عشر كيلو مترا عن تاى إر قو.

ووسط ثرثرة الركاب، وصل القطار بسرعة إلى شى شان كو، فمسافة خمسة عشر كيلو مترا لم تكن مسافة طويلة بالنسبة للقطار أو السيارة. وفى شى شان كو صعد القطار الكثير من الركاب، ولم ينزل منه إلا راكبة واحدة هى شيانغ شويه، وعندما نزلت من القطار كانت يدها تخلو من السلة، حيث كانت قد وضعتها أسفل مقعد الطالبة.

وبدت شيانغ شويه داخل القطار فى خجل شديد وهى تبوح إلى الطالبة أنها ترغب فى أن تستبدل المقلمة بما تحمله من البيض. وعندئذ انتقل الخجل إلى وجه الطالبة، وراحت تفصح لشيانغ شويه أنها حقا ترغب فى أن تهديها المقلمة، وأضافت أنها الآن تسكن داخل الجامعة وتأكل يوميا فى مطعم الجامعة ولا حاجة لها للبيض. وعندما أحست بأن شيانغ شويه قد لا تصدقها، أشارت إلى شعار الجامعة المعلق على صدرها والذى كان يظهر عليه "كلية التعدين"، ولكن شيانغ شويه لم تصدقها بعد، فهل من المعقول ألا يكون لها بيت سوى الجامعة؟ فراحت شيانغ شويه تلعب فى المقلمة وهى مشغولة بالتفكير فى حل لهذه المشكلة، فهى لن تقبل أن تأخذ أى شىء من الآخرين دون مقابل، مهما بلغ بها الفقر مداه. وأخيرا تمكنت شيانغ شويه خلال الثوانى المعدودة التى سبقت وقوف القطار على محطة شى شان كو، استطاعت أن تضع السلة الممتلئة بالبيض أسفل مقعد الطالبة وتغادر العربة بأقصى سرعة.

وكان الركاب قد نصحوا شيانغ شويه أن تبيت الليلة فى شى شان كو، وأن تعود غدا إلى قريتها، كما أخبرها الشاب الودود "لهجة بكين" بأن تلجأ إلى أحد أقرباء زوجته الذى يسكن فى مكان قريب من المحطة، ولكنها لم تكن تفكر فى المبيت، بل إنها لم تكن أصلا ترغب فى أن تبحث عن قريب "لهجة بكين". حتى إن كلام "لهجة بكين" جعلها تشعر بالخزى الشديد، نيابة عن صديقتها فينغ

جياو وعن قريتها الفقيرة تاى إر قو. ومضت تفكر: يجب أن أعود بسرعة إلى بلدتى، وأذهب إلى المدرسة غدا وأفتح حقيبتى بشجاعة، وأضع "المقلمة" على المنضدة، ولم يكن يدور بخيال الركاب أن صوت القطار كان يربك شيانغ شويه، ويجعلها تبدو فى حيرة شديدة كالغزالة المذعورة، بل وإنهم لم يتخيلوا مدى القدرة التى تتحلى بها فتاة الجبل أمام الجبل والظلام.

وغادر القطار محطة شى شان كو بسرعة شديدة، وتركها وسط فراغ كبير، وهبت على المحطة رياح باردة راحت تمتص من جسدها الهزيل، وراحت شيانغ شويه تحكم من وضع الشال على رأسها، ثم انكمشت وجلست على قضيب السكة الحديد، وكانت شيانغ شويه قد عانت من قبل أنواع الخوف المختلفة، فخافت وهى بعد صغيرة من الشعر، حيث كانت تجهش بالبكاء الشديد كلما اكتشفت شعرة نبتت بجسدها، وعندما كبرت كانت تخاف من أن تخرج وحيدة إلى فناء المنزل ليلا، وكانت تخاف من حشرة اليسروع، وكانت تخاف من زغزغة الآخرين لها (وكانت الزغزغة هى أفضل لعبة تضايقها بها فينغ جياو)، أما الآن فهى تخشى شى شان كو الغريبة عنها، تخشى الجبل المظلم الذى يطبق عليها من كل ناحية، تخشى الصمت المهيب الذى يلفها، تخشى صوت أزيز الأشجار إذا ما داعبتها الرياح، وكم من غابات الأشجار تنتظرها فى طريق عودتها على مسافة خمسة عشرة كيلو مترا!

وعلا القمر بدرا وأضاء نوره الأودية الجبلية الساكنة تحت ظلمة الليل، وأضاء نوره الطرق الترابية الصغيرة والأعشاب الخريفية التالفة وجزوع الأشجار الخشنة والأشواك، والأشجار المختلفة التى تملأ جميع أرجاء الجبل، كما أضاء نور القمر أيضا تلك العلبة البراقة التى تقبض عليها شيانغ شويه بكلتا يديها.

وعندئذ فقط فكرت شيانغ شويه فى أن ترفع المقلمة أمام عينيها لتتفحصها، ومضت تلوم نفسها أن كيف غفلت عنها طوال الطريق؟ والآن فقد استوضحت معالمها تحت ضوء القمر، وتحققت من أن لونها أخضر فاتح، ومنقوش أعلى غطائها نقشان لحدوة حصان جميل، ففتحتها فى حذر، وراحت تقلد زميلتها بأن بدأت تنقر على غطاء المقلمة محدثة صوتا ضعيفا، ثم أغلقتها جيدا. ثم عاودت فتحها مرة ثانية، حيث فكرت فى أنه لابد من أن تضع داخلها أى شىء على الفور، فأخرجت بسرعة من جيبها علبة كريم وجه صغيرة ووضعتها داخل المقلمة، ثم أحكمت غلقها. وعندئذ فقط أحست شيانغ شويه أن المقلمة تخصها حقا، ومضت تفكر فى الغد عندما تذهب إلى المدرسة، وكم تتطلع إلى أن تستمع لأسئلة زميلاتها المتكررة!

وفجأة أحست أن قلبها مطمئن، وأن الرياح قد هدأت كثيرا، واكتشفت صفاء القمر ورأت الجبال التى أضاء ضوء القمر ظلمتها، حتى بدت وكأنها صدر أم حنون يلف المكان كله، ونظرت إلى أشجار

الخوخ اليابسة، وسمعت لأول مرة فى حياتها صوت غناء أوراق الأشجار فى ظلمة الليل وتحت تأثير الرياح، ولم تعد الآن تخاف من أى شىء، وراحت تخطو خطوات سريعة فوق عوارض السكة الحديد وهى تمضى إلى الأمام، هذه هى حقيقة الجبال والقمر وأشجار الخوخ، وراحت شيانغ شويه تسير مسرعة إلى الأمام، وكأنها تتعرف على الوادى الجبلى الذى ترعرعت بين أحضانه لأول مرة، ولكن ماذا عن قريتها تاى إرقو؟ وفجأة أسرعت خطاها. إنها تتعجل رؤية القرية، بل وتشعر كأنها لم ترها من قبل، ومضت تفكر فى الصورة الجديدة التى رسمتها لقريتها تاى إر قو: لن تعد فتيات تاى إرقو يتوسلن إلى الآخرين، ولن يكن مجبرات على الرد عن أسئلة الآخرين المتكررة، وسيطرق شباب المدينة الوسيمون أبواب منازل فتيات تاى إر قو، وسيقف القطار عند تاى إر قو مدة أطول، ربما تكون ثلاث دقائق، أو أربع دقائق وربما عشر دقائق أو ثمانى دقائق، وسيفتح القطار لأهل تاى إر قو جميع أبوابه ونوافذه، حتى ولو صادف أحدهم ظرفا طارئا كالذى تعرضت له هى الليلة، فإنه حتما سيتمكن من النزول على مهل.

ماذا حدث الليلة فى تاى إر قو؟ لقد سحب القطار شيانغ شويه، ولكن لماذا؟ إنها الآن تتذكر ما حدث وكأنه مجرد لعبة، لقد ضاعت الأربعين بيضة، فماذا سيكون رد فعل أمها على ذلك؟ ألم يحلم أبوها بأن يتزوج الكثير من الناس وينشغل الآباء بتجهيز بناتهم؟

وعندئذ سينشغل والدها النجار بكثير من الأعمال، وسيعمل طوال اليوم على صناعة صناديق العرائس، سيعمل بجد لكى يجمع النفقات الدراسية اللازمة لشيانغ شويه. وما إن فكرت شيانغ شويه فى تلك الأمور، حتى توقفت فجأة، وكأن ضوء القمر قد خفت وتحولت عوارض السكة الحديد إلى أشباح غامضة، ماذا سأقول عند عودتى إلى المنزل؟ وراحت تنظر إلى الجبال فبدت لها أنها ساكنة، وإلى أشجار الحور فلم تسمع سوى أزيزها، وكأنها لا ترغب فى مساعدتها فى البحث عن حل لمشكلتها، ولكن من أين يأتى صوت جريان المياه الذى تسمعه؟ فراحت تبحث عن مصدر الصوت حتى توصلت إلى جدول ماء ضحل على مسافة بضعة أمتار من شريط السكة الحديد، فنزلت عن القضبان وجلست بجانب جدول المياه، وعندئذ تذكرت ذلك العجوز بائع الحلوى السمسمية الذى كانت قابلته، وهى صغيرة تغسل هى وفينغ جياو الملابس على ضفة النهر، وكانت فينغ جياو قد نصحتها بأن تستبدل بجلباب قديم بعضا من الحلوى، ونصحتها بأن تخبر والدتها أن الجلباب سقط منها فى الماء سهوا. ولكن شيانغ شويه لم تفعل ما أخبرتها به صديقتها، وذلك على الرغم من أنها كانت ترغب كثيرا فى أكل الحلوى، بل ولاتزال تذكر أن العجوز كان قد انتظرها كثيرا حتى ترجع عن رأيها. ولكن لماذا تفكر الآن فى ذلك الأمر التافه؟ ربما لأنها الآن مضطرة لأن تخدع أمها، فمهما يكن فلا يعقل أن نقارن

أهمية المقلمة بالنسبة لها بالحلوى، وستوضح لأمها أن هذه هى علبة نفيسة، ومن يستخدمها تهون أمامه الصعاب، ويتمكن من الالتحاق بالجامعة، وأن يركب القطار ويطوف به كل بقاع الأرض، وسيحصل على كل ما يتمنى، ولن يتجرأ أحد على أن يسأله عن عدد الوجبات التى يتناولها الناس فى قريته، وإن أمها حتما ستصدقها لأن شيانغ شويه أبدا لا تعرف الكذب.

وعلا صوت غناء الجدول، وراحت مياهه تجرى بسرعة، وهى فى غاية النشوة وتصطدم أثناء جريانها بالصخور الملقاة فى عرض المياه، كما كان يتطاير منها فى بعض الأحيان رذاذ صغير، وعندما اقتربت شيانغ شويه من مغادرة الجدول، راحت تأخذ من مياهه وتغسل وجهها وتمسح على شعرها الذى عبثت به الرياح، وعلى الرغم من أن مياه الجدول كانت باردة، فإنها أحستها منعشة، وودعت شيانغ شويه الجدول الصغير وعاودت رحلتها مع شريط السكة الحديد.

ما هذا الشىء الذى يظهر أمامى؟ آه إنه نفق، نفق يبدو صامدا وكأنه عين من عيون الجبال المظلمة، وعندئذ توقفت شيانغ شويه مرة أخرى، وراحت تفكر فى المقلمة التى تحتضنها بين يديها، وفى نظرات زميلاتها التى ستملأها الدهشة والحقد، تلك النظرات التى يخيل إليها الآن أنها تبرق أمامها داخل النفق، وانحنت وقطفت

واحدة من عيدان العشب اليابسة وغرزتها فى شعرها؛ حيث كانت قد أخبرتها أمها أنها بذلك يمكن أن تحفظ نفسها من الشرور، ثم أسرعت نحو النفق، بل اندفعت تجاهه اندفاعا.

وكانت شيانغ شويه تشعر بحرارة الجو تزيد كلما تقدمت إلى الأمام، ففكت الشال المربوط على رأسها وأرسلته حول رقبتها، كم من المسافة قطعت الآن؟ إنها لا تعرف. وأين تاى إر قو؟ وعندما نظرت إلى الأمام رأت هنالك على مرمى البصر شيئا أسود يتلوى على القضبان، وما إن اقتربت منه حتى اكتشفت أنه حشد من الناس، نعم حشد من الناس جاءوا لاستقبالها، وكانت تتقدمهم فينغ جياو وباقى صديقاتها من فتيات القرية، وراحت شيانغ شويه تحاول أن تسرع من خطاها، ولكن لا تعرف لماذا بدت قدماها متثاقلتين هكذا؟ فوقفت على القضبان، وراحت تمسح بنظراتها شريط السكة الحديد المستقيم، والذى كان يلمع تحت ضوء القمر، بل وكان يسجل فى صمت رحلة شيانغ شويه معه. وفجأة أحست بانقباض قلبها، فراحت تذرف عيناها الدمع، نعم، إنها دموع الفرحة، دموع الرضا. وأمام تلال الجبال الصامدة الرقيقة، غمرَ قلبها فيض من الفخر لم تعهد مثله من قبل، وراحت تمسح دموعها بكفها، ثم مدت يدها وأخذت تلك العشبة التى كانت قد غرزتها فى شعرها، ثم راحت تجرى فى اتجاه مستقبلها، وهى ترفع المقلمة بين يديها.

وفجأة عمت أصوات فرحة الفتيات جميع أرجاء الجبل، حيث علا صوت هتافهن الحار باسم صديقتهن شيانغ شويه، وكن جميعا يضحكن ضحكات من القلب تخلو من أية ضغائن، وأخيرا أثارت فرحتهن الجبال الراسخة، حتى راحت الجبال تشاركهن الفرحة بصوت لطيف وهادئ.

نعم إنها شيانغ شويه، شيانغ شويه.

موضوع شهر يونيه

بقلم: تييه نينغ

فى الثانى من مايو عام ١٩٨٢ نشرت صحيفة العاصمة فى أسفل يمين الصفحة الأولى رسالة من أحد القراء، وقد انتهت الرسالة بتعليق محرر الصفحة، وكشفت الرسالة المنشورة عن استغلال أربعة من مديرى هيئة ثقافة مدينة S للمهرجانات المسرحية وتورطهم فى أعمال غير مشروعة، وجاءت لهجة المحرر جادة وصارمة تماما، ذلك على الرغم من خلو الرسالة من أية قضايا خطيرة.

وقد وقع صاحب الرسالة رسالته باسم موا يو من هيئة ثقافة مدينة S.

وبمجرد أن قام الحارس الأسطى دا بتوزيع صحف ذلك اليوم، عمت الهيئة موجة شديدة من الاضطراب.

ولم يكن بتلك الهيئة أى شخص يدعى موا يو، ليس فقط فى

الوقت الحالى، بل لم يكن هناك فى تاريخ هذه الهيئة من يسمى بهذا الاسم، وكان الأسطى دا على دراية كبيرة بذلك أكثر من أى شخص آخر بالهيئة، ولكن صاحب الرسالة المذكورة كان أيضا على دراية كبيرة بكل ما يدور فى الهيئة فى ذلك الحين.

نعم لقد كان صاحب الرسالة على دراية كبيرة بمن هؤلاء المديرين، اصطحب زوجته وأولاده وقضى بضعة أيام بأحد الفنادق الكبرى، ومن منهم استغل تذاكر المهرجانات المسرحية للتربح الشخصى غير المشروع، ومن منهم استغل سيارة الهيئة فى رحلاته الخاصة، ومن منهم لم يدفع نفقات الوجبات الخاصة به كاملة. وعلى وجه السرعة، أرسلت حكومة العاصمة لجنة لتقصى حقيقة هذا الأمر، ولم يجد مديرو الهيئة من بد إلا أنهم سارعوا بالاستجابة للجنة والتعاون معها، وأخرجوا من جيوبهم بعض الأموال، وأكملوا المبالغ التى ذكرت الرسالة أنهم قاموا باختلاسها من المال العام.

وبعد أن انتهت لجنة التفتيش من عملها، بدت هيئة ثقافة المدينة هادئة تماما، وكان هذا فى الظاهر فقط؛ حيث إنك كنت تشعر جليا بشىء من الاضطراب يخيم على الممرات والسلالم والمطعم والحمامات وفى كل مكان يرتاده الناس، حتى إنك كنت تشعر أيضا بأن كل مقعد وكل غلاية مياه فى الهيئة تتمتم وتتبادل الاستفسار عمن يكون هذا الشخص الذى يدعى موا يو، من هو موا يو؟

وبالطبع كان لقب موا يو عبارة عن اسم حركى لشخص ما، هذا ما توصل إليه الأسطى دا الذى لم يكن أقل ذكاء من غيره؛ حيث إنه كان قد عمل من قبل مراسلا سريا للحزب فى المدينة، وكان هذا خلال فترة ما قبل تأسيس الصين الجديدة[1]، وكان على دراية كبيرة أكثر من كثيرين غيره بأهمية مغزى الاسم الحركى خاصة فى الأوقات الحرجة.

وفى الثانى من يونيه عام ١٩٨٢، استلم الأسطى دا حوالة مالية أرسلت بها إحدى الصحف بالعاصمة إلى موا يو، وكان مدونا إلى جانب خانة المرسل أن الحوالة عبارة عن مكافأة مالية عن مقالة نُشرت بالصحيفة، قيمة المكافأة اثنا عشر يوانا لكل مائة كلمة، بإجمالى أربعة وعشرين يوانا، بما يعادل نصف مرتب الأسطى دا الشهرى.

ووفقا للوائح الهيئة، كان على الأسطى دا بعد استلامه أى حوالة، أن يقوم بتعليقها على سبورة ويدون عليها بياناتها وبيانات الشخص المرسلة إليه، ويثبت ورقة الحوالة على إطار زجاجى ويضعها أعلى حافة نافذة غرفة الاستعلامات، لكى يأتى صاحبها لاستلامها، غير أنه فى هذه المرة وعلى غير العادة، بمجرد أن

---

(١) تم تأسيس الصين الجديدة أو جمهورية الصين الشعبية فى ١ ـ ١٠ ـ ١٩٤٩. (المترجم).

استلم الحوالة من عامل البريد، فكر قليلا فى أمرها ثم سارع بوضعها داخل درج وأحكم إغلاقه، ثم راح ينظر فيما حوله ويتأكد من أن المكتب يخلو من أى شخص سواه، وكم كانت تلك فرصة نادرة طال انتظار الأسطى دا لها طويلا.

وفى المساء، راح الأسطى دا يتقلب فى سريره، وكان كل مرة يتقلب فيها تلوح أمام عينيه صورة ما لشخصية موا يو، ففى البداية كانت هذه الصورة لسائق الهيئة الأسطى ليو، والذى كان قد عمل لمدة عام عاملا مؤقتا بالهيئة، ولكن لم تكن أحاديثه وأفعاله تتسم بالحذر الذى لابد أن يراعيه أى عامل مؤقت، وكان دائما ما يبالغ فى سب زوجته وفى التحدث عن مهاراته فى فن القيادة، وكأنه أتعس زوج وأمهر سائق فى العالم أجمع، وكان السائق ليو قد استقال من عمله بالهيئة منذ وقت قريب، وقبل استقالته كان قد عمل سائقا خاصا لجميع مديرى الهيئة أثناء العرض المسرحى الذى هو موضوع الرسالة، وإذا ما جزمنا بأن عينى السائق وأذنيه لا يمكن أن تكونا موضع شك، فإن المعلومات التى من الممكن أن يحصل عليها السائق من خلال أحاديث مرءوسيه داخل السيارة، إنما هى جميعها معلومات مباشرة وموثوقة.

وتقلب الأسطى دا فى سريره مرة ثانية، فلاحت أمام عينيه صورة أخرى لموا يو، وكانت هذه المرة صورة السيدة دو يان رونغ مديرة القسم المالى بالهيئة، ودو يان رونغ سيدة فى منتصف العمر، بدينة بعض الشىء وذات طباع جيدة، وهى على دراية كبيرة بجميع

حسابات الهيئة، وربما كانت مهارتها فى أعمال المحاسبة هى السبب الرئيسى وراء نقلها لتشغل منصب محاسب الفرقة المسرحية بالهيئة، فكيف تفلت من بين يديها أية نفقات تخص ذلك العرض المسرحى موضوع الرسالة؟

وتقلب الأسطى دا فى سريره مرة ثالثة، فلاحت أمام عينيه صورة جديدة لموا يو، إنه الطبيب لو طبيب الهيئة؛ حيث إن الطبيب لو كان قد اختارته الهيئة للقيام بالخدمات الصحية أثناء اجتماعات العرض المسرحى موضوع الرسالة، وفى الواقع لا يمكن أن ننظر إلى الطبيب باعتباره أنه إنسان ماهر فقط فى شئون الطب، فكثيرا ما كان هو مصدر للكثير من الأخبار المثيرة داخل الهيئة.

وتقلب الأسطى دا فى سريره مرات عديدة، ولاحت أمام عينيه صور مختلفة لشخصية موا يو، وكم تمنى أن يميز بعينيه الطاعيتين فى السن شخصية موا يو الغامضة، وأن يسارع ويوصل له الحوالة المالية التى تخصه، فقد كانت مهمة توصيل الرسائل مهمته الرئيسية، وذلك عندما كان يقوم بالأعمال السرية للحزب فى الماضى، وكان لا يترك أبدا أى شىء يدل عليه، وإذا ما سلم الرسالة لموا يو، فإن موا يو سيشكره كثيرا، لأنه هو ذاته دائما ما يشكر موا يو من أعماق نفسه.

وفى صباح اليوم التالى، لم يظهر أى من الأشخاص الذين شك فيهم الأسطى دا بالأمس، ولكن السيد شه جين بين نائب مدير

قسم الآثار بالهيئة، كسر حالة عزوف الموظفين عن الذهاب إلى غرفة الاستعلامات، وجاء السيد شه يقصد الأسطى دا، وبعد أن استرق النظر إلى تلك الرسالة الموضوعة على حافة النافذة، تحدث إلى الأسطى دا قائلا: "يا أسطى دا، أرى أن خطابات اليوم جاءت مبكرا عن خطابات الأمس".

"إنها خطابات الأمس، لم تصل خطابات اليوم بعد، إنها تصل فى الساعة التاسعة".

وخطابات بعد الظهر؟ متى تصل خطابات بعد الظهر؟ سأله السيد شه جين بين.

"فى الساعة الرابعة والنصف".

وغادر السيد شه جين بين المكان، ولكن الأسطى دا انتبه إلى أنه عند خروجه من الغرفة كان يحدق النظر إلى ذلك الدرج المغلق. فمضى يفكر، أترى أنه اكتشف شيئا ما؟ هل انتبه إلى الأشياء التى يخفيها دا داخل الدرج المغلق، والتى كان يكتفى من قبل بوضعها على حافة النافذة؟ وإذا كان قد اكتشف ذلك حقا، أترى أن دا سيكون بالنسبة للسيد شه هو موا يو صاحب الرسالة المنشورة؟

ولم يكن الأسطى دا هو موا يو، بل إنه لم يفكر مطلقا أن يكون مثل هذه الشخصية؛ فابنه الأصغر عاطل فى البيت، فى انتظار أن يحل محل أبيه فى الهيئة. ومضى الأسطى دا يفكر فى أنه إذا ما

انتبه مديرو الأقسام بالهيئة إلى ذلك الدرج المغلق، فسيكون ذلك مصدرا للشك فى الأسطى دا نفسه، وإذا ازدادت شكوكهم فإنه سيضيع بنفسه فرصة عمل ابنه العاطل فى البيت، وما إن فكر دا فى هذه الأمور حتى سارع بإخراج مفتاح الدرج من جيبه.

وفى تمام الساعة التاسعة صباحا، وبعد أن وصلت خطابات ذلك اليوم وصحفه، علق الأسطى دا تلك اللوحة السوداء المعروفة للجميع فى الهيئة عند مدخل غرفة الاستعلامات، وللمرة الثانية كان اسم موا يو مكتوبا وسط أسماء أصحاب الخطابات والحوالات لذلك اليوم.

ومرت تسعة وخمسون يوما، تغيرت خلالها الأسماء المدونة على اللوحة تسعة وخمسين مرة، ولكن اسم موا يو كان لا يزال فى مكانه لا يتغير، ولا تزال الحوالة المالية التى تخصه تبرز أعلى النافذة الزجاجية لغرفة الأسطى دا، حتى أحرقتها شمس شهر يونيه الحارة وحولتها إلى ورقة صفراء ذابلة.

وكانت غرفة الاستعلامات قبل هذا الحدث عبارة عن مكان جميل، دائما ما يرتاح عنده المارة من موظفى الهيئة، ولكنها خلال التسعة وخمسين يوما الأخيرة تحولت إلى مكان كئيب يطرد زواره. فلم يعد يقصده السيد رئيس قسم الأبحاث بالهيئة، والذى كان يأتى أحيانا إلى هنا يشارك الأسطى دا لعب الشطرنج، حتى إن عاملة

الطباعة كونغ حين لينغ ذات الشعر القصير، والتى تعتبر أكثر من يقصد غرفة الاستعلامات، راحت تتخفى بسبب ودون سبب عن أعين الأسطى دا، العاملة كونغ التى تعيش الآن قصة حب كانت لا يمكن أن تستغنى أبدا عن الأسطى دا، ولم يجد دا من بد إلا أن أخذ الرسالة وحملها إلى الطابق الثانى بالهيئة، فقد أدرك بنفسه أن ذلك الخطاب الثقيل من المؤكد أنه يخص الآنسة كونغ التى تعيش قصة حب. وما إن رأته كونغ، حتى راحت تعتذر له بابتسامة جميلة أن الخطاب لا يخصها، فتركها الأسطى دا على الفور، ولم يتحدث معها فى أمر هذه الرسالة الغريبة.

وخلال التسعة وخمسين يوما الماضية، كان الكثير من المارة يتعمدون عدم النظر إلى غرفة الاستعلامات، وكأن شباك غرفة الأسطى دا تحول إلى كهف مظلم يرعبهم جميعا، وخلال تلك الفترة لم يقصد غرفة الاستعلامات سوى بعض من مديرى الأقسام النزهاء بالهيئة، والذين كانوا يكتفون بالمرور من أمام تلك الرسالة المغلقة، بل كانوا أيضا يرمون الأسطى دا الجالس عند مدخل الغرفة بنظرات ذات مغزى عميق، الأمر الذى جعله يتذكر أيام عمله مراسلا سريا فى الحزب، وكأن هؤلاء جاءوا يقصدونه ليتبادلوا معه شفرات معينة.

وكان عليهم أن يقفوا خارج النافذة ويصيحوا تجاهه: "رغيف السمسم"، وكان عليه هو أن يرد قائلا: "المحمر فى الزيت".

ثم يقول هؤلاء: كم سعر خه دا مين؟ ويرد هو: لا يوجد خه دا مين، يوجد لاو داو.

ولم يقصده أحد ليتبادل معه هذه الشفرات طيلة تسعة وخمسين يوما كاملة، بل ولم يظهر أمام نافذته أىٌ من العلامات التى تخيلها الأسطى دا ولم يكن مديرو الأقسام النزهاء بالنسبة له سوى بعض من الرفقاء المنافقين، فلم يجد من بد إلا أن يكرر شفراته مع نفسه.

وكان السيد شه جينغ بين أكثر الذين قصدوا غرفة الاستعلامات خلال التسعة وخمسين يوما الماضية، بل إنه كان يأتى إليها وهو واثق من نفسه تماما، وكان الأسطى دا ما إن يراه حتى ينشغل بالتقليب فى محطات الراديو، حتى يضايقه صوت خشخشة الراديو، فيفر السيد شه مسرعا من غرفة الأسطى دا. وما إن يغادر هو الغرفة، حتى يمضى دا يحادث نفسه مبتسما "أبحث عن محطة ما، وهذا ما يجعلنى أنشغل عن الحديث معك. وعلى الرغم من أن الصحيفة لم تحدد اسمك لأنك لم تتورط كثيرا فى ذلك الموضوع وقد راعت الصحيفة شبابك، ولكنك تأتى الآن لتتجاذب معى أطراف الحديث وتتناقش معى لتعرف من يكون هو موا يو، لا، إنك تسبح فى بحر من الأحلام".

وأحس الأسطى دا أنه يجب عليه أن يتحلى بالصبر، وما إن يفكر الأسطى دا فى ذلك الشخص صاحب الرسالة، حتى لا يتمالك

نفسه ويمضى يحدق النظر فى التقويم المعلق أمامه، فالأيام تنقضى بسرعة، وغدا سيمر شهران بالضبط على وصول الحوالة إلى الهيئة، وكان قد كتب أعلى استمارة الحوالة بوضوح، كتب أن مكتب البريد له الحق فى استعادة الحوالة إذا لم يستلمها صاحبها خلال شهرين من وصولها إلى صاحبها.

وما إن يفكر دا فى الغد، حتى ينتابه شعور بالقلق والضيق، فيسارع بإغلاق الراديو ويمضى يحدق النظر مليا فى القصاصة الصغيرة الموضوعة أعلى حافة النافذة، وينظر إليها فى أسف، نادما على تجاهلها وتخوفه منها وشعوره باللامبالاة تجاهها لمدة شهرين كاملين.

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى، وعندما توافد الكثير من الناس نحو مدخل الهيئة، بدا أنهم اكتشفوا جميعا فى وقت واحد أن نافذة غرفة الاستعلامات الزجاجية تخلو من القصاصة الصفراء البالية التى كانت معلقة أعلاها، وقد جعل اختفاء تلك القصاصة البالية جميع من فى الهيئة يتنفسون الصعداء، ويقتربون من غرفة الاستعلامات وكأنهم قد زُف إليهم نبأ فك الحصار عنهم، أو كأنهم قد نجحوا فى اجتياز خندق طال انتظارهم من خلفه، أو كأنهم..؟ وقد تولد لدى كل منهم إحساس خاص تجاه تلك القصاصة، وفجأة أصبح البحث عن الأسطى دا وتقصى أمر

الشخص الذى استلم الحوالة هو الشغل الشاغل لجميع من بالهيئة.

وكانت الآنسة ذات الشعر القصير الثرثارة كونغ لينغ لان تتمتع بنظر حاد يفوق جميع زملائها بالهيئة، حيث سبقتهم جميعا وراحت تصيح نحو غرفة الاستعلامات: "كيف أن الباب مغلق هكذا!"

"آه من هذا العجوز دا، إننى أبحث عنه لنلعب شوط شطرنج!" وهنا علا صوت السيد رئيس غرفة الأبحاث بالهيئة:

"أيها العجوز دا؟ إننى أعلم أنك عدت إلى المنزل لتساعد زوجتك فى شراء بعض الفحم". قالها الطبيب لو وهو ينظر إلى الحضور من تحت عدسات نظارته.

"يا أسطى دا كيف تذهب لقضاء أمور خاصة أثناء أوقات العمل؟" هنا تساءل السيد شه نائب مدير قسم الآثار، والذى كان يدس نفسه وسط جمع الحاضرين.

ويبدو أن ظهور السيد شه قد عكر صفو الجميع، وما إن هم جميع الحضور بالمغادرة، حتى ظهر أمامهم الأسطى دا فجأة، وقد دخل فناء الهيئة وهو يركب دراجة بثلاث عجلات، ولم تكن الدراجة محملة بالفحم كما تخيل الجميع، لكنها كانت محملة بالمسحات الخاصة بتنظيف الأرضيات.

فأوقف الأسطى دا الدراجة عند مدخل غرفته، وراح يتأمل الحاضرين، وقد فهم القصد من تجمهرهم فى هذا المكان، فنزل

عن الدراجة وأخرج على مهل فوطة صغيرة وراح يمسح عرقه، وهو ينتظر أن يوجهوا له سيلا من الأسئلة.

"يا أسطى دا! هل جاء من استلم الحوالة؟" كان السيد شه نائب مدير قسم الآثار هو أول من استهل الحديث إلى الأسطى دا.

"نعم، لقد جاء من استلمها".

"إذن فإن موا يو هو..."

"إنه أنا، نعم أنا موا يو". وما إن أنهى الأسطى دا كلامه حتى استند بظهره إلى كومة المسحات المكدسة خلفه.

وهنا بدت على وجوههم آثار الاضطراب، وراحوا يرمون دا بنظرات يملؤها الشك، وحدق السيد شه نائب مدير قسم الآثار فيه مليا، ولكن لم يشعر أحد من الحاضرين بغرابة نظراته إلى الأسطى دا.

وبعد أن تفرق الحضور كلٌّ إلى مكان عمله، راح شه يسأل دا بصوت منخفض: "إذا فإنه أنت الذى كتب الرسالة المنشورة فى الصحيفة؟"

"إذا لم أكن أنا الذى كتبها فكيف تجرأت واستلمت المكافأة، وكيف أنفقتها فى شراء تلك المسحات؟ فلقد تدهورت جميع ممسحات الهيئة ولابد من شراء ممسحات جديدة".

"إذن فإنك أنت الشخص الذى كتب الرسالة؟" وفى هذه المرة كان شه يؤكد على صيغة السؤال الموجه إلى دا.

"نعم، وكيف لا تصدقنى، هل تشك فى ثقافتى المحدودة؟ يمكننى أن أصارحك بأن الشخص الذى تعلمت على يديه فى صغرى يشغل الآن منصب وزير فى الحكومة المركزية.

"أنت الذى كتبتها إذن، ولكن خط الرسالة.."

"وهل رأيت الرسالة؟ هل وصلتك الرسالة قبل نشرها؟ يا له من أمر خطير.

وهنا سارع الأسطى دا بسحب ممسحة من فوق دراجته، ووضعها فى يد السيد شه، فأخذ شه الممسحة وتوجه إلى مكتبه وهو يلتزم الصمت، وفى الحقيقة فإن السيد شه كان فى الأوقات الأخيرة لا يوافق على مناقشة الآخرين فى موضوع الخط الذى كتبت به الرسالة موضوع القضية.

وفى أكتوبر عام ١٩٨٣، انتقل بعض من مديرى الأقسام الكبار فى السن من مناصبهم للعمل فى مناصب جديدة، وتم ترقية السيد شه ليشغل منصب رئيس هيئة ثقافة مدينة (S)، وكان فى كل مرة يمر من أمام غرفة الاستعلامات، كان ينظر إلى النافذة وكأن تلك القصاصة البالية لا تزال معلقة فى مكانها، ومنذ أن تولى منصبه الجديد كان دائما ما يفكر فى استدعاء الحارس الأسطى دا،

ليتجاذب معه أطراف الحديث حول بعض الأمور، ولكن كان يمنعه عن ذلك أمر مهم؛ إنه كان يأمل فى التحدث مع الأسطى دا، كان يريد أن يفصح له عن أن كاتب الرسالة ليس هو الأسطى دا ولكنه... من يكون هو إذن؟ ولكنه انتبه فجأة إلى أنه يشغل الآن منصب رئيس الهيئة، وأنه ضاعت منه فرصة كشف حقيقة تلك الواقعة لجميع من فى الهيئة.

إنه لا يوجد فى هذا العالم إنسان كامل الأوصاف، وعلى الرغم من أن السيد شه جينغ بين لم يكن ليؤمن بمثل هذه الحكمة، فإنها دائما ما كانت تشغله، خاصة عندما يمر من أمام نافذة غرفة الاستعلامات.

كتبت فى شهر نوفمبر عام ١٩٨٣.

الأعمى بائع الصحف

بقلم: تشه تزه جيان

- ١ -

كان الضرير وو تسه مين والضريرة وانغ ياو تشين زوجين متحابين، وكان الزوج وو تسه مين قد فقد بصره وهو فى السادسة عشرة من عمره، وذلك إثر إصابته بمرض عضال، بينما كانت زوجته وانغ ياو تشين قد ولدت ضريرة، ولكى يخفف من معاناة زوجته الضريرة، كان وو تسه مين دائما ما يحدثها عن الألوان المختلفة التى بصرتها عيناه قبل أن يصاب بالعمى؛ حيث كان يوضح لها أن الأشجار جميعها خضراء اللون، أما السماء فهى زرقاء، ولما كانت عينا وو تسه مين لم تبصرا هذه الألوان الكثيرة منذ زمن بعيد، فكان دائما ما يبالغ هو فى وصف بعض الألوان، فكان يصف الأخضر بأنه شديد الخضرة، والأحمر بأنه شديد الاحمرار، ولم يكن لدى الزوجة الضريرة وانغ ياو تشين من بد إلا أن تضيق حائرة

أمام هذه الألوان المختلفة، بل وكانت تجهد نفسها فى محاولة تخيل تلك الألوان كلٌ على حدة، ولكن تخيلاتها كانت دائما ما تنتهى بالفشل، مما جعلها تتخلى عن اهتمامها بكل ما فى هذا العالم من ألوان مختلفة.

وكان هذان الزوجان الضريران قد تزوجا منذ عام مضى، ويقع مسكنهما خلف البقايا الأثرية لمقاطعة مان جو القديمة فى الناحية الغربية من شارع با لينغ، وكان مسكنهما عبارة عن منزل بسيط مبنى من الطوب اللبن، تزين سقفه فخاريات حمراء، أمامه بعض من أشجار اللك والخوخ، وهو مسكن على طرز الدور الرباعية الصينية النموذجية، تسكنه ثمانى عائلات، يوجد فى فنائه فسقية مياه كبيرة، تتكدس عندها أكوام من الفحم والخضروات المخزونة لتكفى أصحابها طوال العام، والصناديق الخشبية وبراميل القمامة وغيرها من متعلقات السكان. وهكذا كان الفناء البسيط يبدو وكأنه فناء كبير بما يحويه من أشياء كثيرة، ولو كانت تسكن هذا الفناء عائلة واحدة لبدا عندئذ جميلا ولأصبح موضع إعجاب الناظرين إليه، ولكن الفناء يسكنه الآن ثمانى عائلات، مما جعله يعج بمختلف البشر والمزاجات، وأصبح يتميز بالضوضاء والأصوات الصاخبة والكثير من المشاعر المختلطة فى وقت واحد.

ويتكون مسكن الزوجين الضريرين من غرفة واحدة ومطبخ، ولا يوجد به حجرة استقبال، ويظهر أثاث الغرفة اليتيمة بسيطا للغاية، فهو يتكون من سرير لشخصين ومنضدة طعام دائما ما تكون

منتصبة فى مكانها، ومقعدين خشبيين بالإضافة إلى ثلاجة كهربائية. وفى صباح كل يوم وعندما تجلس وانغ ياو تشين على المقعد الخشبى داخل الغرفة تسرح شعرها، كان ووتسه مين يستمع جيدا إلى صوت المشط بين شعرها، والذى كان غالبا ما يحدث صوتا مسموعا كصوت تساقط أوراق الشجر.

وبعد تناول وجبة الإفطار، كان الزوجان يخرجان كعادتهما كل يوم إلى عملهما وهما متشابكا الأيدى، حيث يحمل ووتسه مين على ظهره حامل الصحف ومئات النسخ من الصحف المختلفة، وتحمل وانغ ياو تشين غلايتين من مياه الشرب الدافئة وحاشيتين من الكتان، ويتوجهان معا إلى ناصية شارع تشانغ خونغ لبيع الصحف. وكان الوقت حينئذ خريفيا، حيث شمت أنفهما رائحة صقيع الخريف المبكر. ترى ما لون الصقيع؟ أهو أزرق اللون؟ ولكن اللون الأبيض هو اللون الذى يجعل الإنسان يشعر بالبرودة، وما إن فكرت وانغ فى كلام زوجها وو عن الألوان، حتى أدركت بنفسها أن لون الصقيع أبيض وليس أزرق كما تتخيل، ولكن هل جميع الأشياء التى تجعل الإنسان يحس بالبرودة مثل الماء والهواء ورقائق الحديد والبورسلين، هل هذه الأشياء جميعها بيضاء اللون؟

وسمعت وانغ ياو تشين أصوات أبواق السيارات المزعجة، تلتها أصوات أجراس الدراجات التى كانت عالية بعض الشىء، وسمعت وقع أقدام الناس يعدون فى الطرقات كل إلى مكان عمله، ثم يعودون عند الغروب وهم فى غاية التعب.

وعبر الزوجان الضريران تلك المنطقة المزدحمة وسط المدينة بسهولة، حتى وصلا إلى مدخل السوق الزراعى بشارع تشانغ خونغ، ثم سارعا بنصب حامل الصحف وعرض ما يحملانه من صحف ومجلات ذلك اليوم، وكانت صحف "الصباح" و"المساء" هى الأكثر مبيعا بين ما يبيعانه من صحف ومجلات، وكانت وانغ ياو تشين تمد يدها وتأخذ بدقة ما يطلبه منها الزبائن، فخبرتها التى تصل إلى بضع سنوات فى بيع الصحف جعلتها تميز بسهولة، ومن خلال حاسة لمس النقود التى تأخذها من الزبائن، بل وكانت ترد إليهم ما تبقى بدقة كاملة ودون زيادة أو نقصان، وهكذا فقد كانت تجارتهما رائجة، فقد كانا يملكان الكشك الوحيد لبيع الصحف هنا بشارع تشانغ خونغ.

وكانت صحف ذلك اليوم مليئة بالمانشيتات والموضوعات المثيرة: أسرار تحول الشحاذ الفقير إلى ثرى، وخبر انتحار مضارب فى البورصة خسر رأسماله كله، وخبر اختيار النجمة الصينية المعروفة قونغ لى[1] بوصفها واحدة من أجمل عشر جميلات على مستوى

---

(١) قونغ لى Gong Li: نجمة سينمائية صينية معروفة ولدت بمقاطعة شان دونغ الصينية عام ١٩٦٥، حصدت عددا كبيرا من الجوائز الكبرى داخل الصين وخارجها، قامت ببطولة عدد من أهم الأفلام السينمائية المعروفة للمخرج الصينى العالمى جانغ إى موو، موو، مثل فيلم «أن أحيا» وغيرها من الأفلام الشهيرة. (المترجم)

العالم، وإصابة معجبات النجم جوو رون فا[1] بداء الحب من طرف واحد، وخبر عزوف اثنتى عشرة طالبة بالمرحلة الإعدادية عن الزواج طيلة الحياة بسبب سماع أغانى برنامج تونغ أن قه، وخبر وقوع سلسلة من حوادث سرقات البنوك وغيرها من الموضوعات المثيرة. وقد بدا لهما أن كلمات تلك الموضوعات كانت مفزعة كالوحوش الضارية المفزعة، وعلى الرغم من أن وانغ ياو تشين كانت عاجزة عن مطالعة تلك الموضوعات المثيرة، فقد كان لديها القدرة على شم وتحسسها، والكآبة التى كانت تنساب من بين سطورها.

وجلس الزوجان الضريران على الحاشية الكتانية، وراحا يستمتعان بأشعة الشمس المتدفقة إليهما من جميع الاتجاهات، وبعد مرور خمس دقائق بالضبط على دوى صوت المفرقعات، فتح أحد محال الأغذية أبوابه، ودخل إلى السوق الكثير من وفود الفلاحين الذين جاءوا من قراهم لبيع الخضروات، والذين كانوا يلبسون الأحذية المطاطية الملطخة بالطين، وحيث بدت خطواتهم عشوائية ومسموعة واقتربت من الضريرين سيدة تلبس حذاء ذا

---

(١) جوو رون فا: أو CHOW Yun - Fat كما هو معروف عالميا ممثل صينى معروف، ولد فى عام ١٩٥٥ بمدينة هونج كونج، وحصل على عدد من الجوائز السينمائية الكبرى داخل الصين، وحاز على شهرة عريضة داخل الصين من خلال تقديمه عدة أدوار سينمائية حازت قبول الجماهير الصينية حتى لمع اسمه فى الثمانينيات جنبا إلى جنب مع النجم العالمى المعروف جاكى شان. (المترجم)

كعب عال تفوح منها رائحة عطور قوية، بل ويمكن أن يحكم الضريران ـ من خلال صوت وقع خطواتها ـ أنها تمشى تتبختر مزهوة بقوامها، وراح وو تسه مين يستفسر من العجوز صاحب كشك السجائر عن أهم الأخبار التى نشرتها صحف اليوم؛ حيث كان ذلك العجوز يتعهد بمساعدتهما فى قراءة الصحف فى مقابل أن يتمتع هو بتصفح أى صحيفة أو مجلة مجانا.

وقال العجوز بائع السجائر: "ألم تسمعا بخبر قدوم فرقة مصارعة الثيران من مدينة قوى جوو منذ أيام قليلة؟ وقد تم عرض برنامج المصارعة مساء أمس بملعب بينغ شانغ، وهل علمتم ماذا كان من أحد الثيران المشاركة فى العرض؟ لقد اصطدم بالسور واقتحم مقاعد الجماهير، وتقدم حتى اصطدم بأحد المصورين".

"وماذا حدث بعد ذلك؟ هل جُرح المصور؟" سأله الضرير وو تسه مين، وهو يضرب ركبته براحة يده.

أجاب العجوز: "لحسن الحظ لم يصب المصور بأذى، ولكن حركة الثور أفزعت ثلاثة من مرضى القلب كانوا بين الجمهور، وقد سارع مصارع الثور إلى الثور الهائج ووخزه بسكين أصابت أمعاءه، مما جعل الثور يزرع الساحة ركضا وهو جاحظ العينين".

"ماذا!" ردت وانغ ياو تشين بصوت منخفض، وقد بدت متأثرة وكأنها لا تستطيع سماع مثل هذا الخبر.

"والثور، ماذا حدث للثور؟ تابع وو تسه مين سؤاله عن الحادثة وكان لا يزال يضرب ركبته براحة يده.

"وماذا تتوقع أن يكون من أمر الثور؟ هل أمامه إلا الموت؟ فانتصار المصارع يعنى موت الثور، لقد خرجت أمعاؤه، فهل يمكن أن يبقى على قيد الحياة بعد ذلك؟ ولحسن حظه أنه كان قد جاء من مدينة قوى جوو مشحونا داخل طائرة، وإلا فإنه كان مات مظلوما؟ فأنا لم أركب الطائرة طيلة حياتى، ولكنه ركبها، نعم إنها ميتة كريمة!" ثم راح العجوز يبصق على الأرض بصوت مسموع، ثم قال: "إنك دائما ما تشترى منى السجائر، فسأهديك هذه المرة علبة كبريت". وهنا عرف وو تسه مين أن هناك من جاء يشترى منه السجائر، وهكذا كان العجوز يهتم بزبائنه. لقد مات الثور، ولكن الإنسان قاتله لا يزال على قيد الحياة.

وبدت رياح الخريف عاتية بعض الشيء وهى تهز الأشجار بقوة، ويبد وأنه حان موعد تخزين الكرنب الخريفى والبطاطس والفجل والبصل، وحان وقت ملء برطمانات المخللات، وعلينا أن نسارع بإحكام إغلاق النوافذ، فلقد اقترب دخول الشتاء، وعندئذ لم يكن وو تسه مين يضرب على ركبته، لقد كان أمامه أحد الزبائن يطلب منه الصحف.

وفى الظهيرة، كانا قد باعا أكثر من نصف كمية الصحف.

وذهبت الزوجة وانغ إلى محل بقالة قريب واشترت منه رغيفين من الخبز الذى لا تعلم كم مضى من الوقت على إنتاجه، واشترت أيضا واحدة من السجق، ثم عادت وفتحت غلاية المياه الدافئة وراحت تشارك زوجها الطعام، ولكنها ما إن مضغت لقمة واحدة من الخبز، حتى شعرت بحموضة شديدة فى فمها فراحت تتقيأ حتى أخرجت كل ما فى جوفها.

"ماذا بكِ؟" ابتلع وو تسه مين السجق الذى كان فى فمه، ولم يكن لهذا السجق أى مذاق أو رائحة، فقد كان محشوا بالدقيق.

"إننى لا أحب أكل الأشياء الحامضة، ولا أرغب الآن فى أكل أى شىء، وقد حدث نفس الشىء صباحا"، وفجأة سقط الخبز من يدها، فقد كانت مشغولة بالتفكير فى أمر الثور وهل ذرفت عيناه الدموع قبل موته؟ حيث كانت قد سمعت أن الثور حيوان عاطفى وحساس جدا.

"ربما يكون السبب فى ذلك كعك الأرز الذى تناولتيه ليلة أمس". أجابها وو تسه مين والذى كانت تخلو ملامحه من أى علامات قلق عليها، ثم قال: "وقد أخبرتك أن هذا الشىء سيئ الهضم، ولكنك أصررتى على تناوله، فها أنتى قد أضررتى بنفسكِ؟"

وجاءت سيدة فى منتصف العمر تطلب مجلة "الحياة العائلية"، وما إن استلمت وانغ ياو تشين النقود من تلك السيدة، حتى قدمت

إليها المجلة التى تطلبها بدقة تامة، وقد كانت وانغ فى تلك الأثناء تتحدث فى موضوعات تتنافى تماما مع موضوعات المجلة، فقد كانت تسأل: "هل انخفض سعر الخيار؟ يجب أن نسارع بتخزين كمية وافرة من الخيار المخلل ننعم به فى فصل الشتاء".

«انتبهى إلى الجرائد وسأذهب أنا أستفسر عن الأسعار داخل السوق"، وشرب وو تسه مين قليلا من الماء ثم مضى يحكم غلق الغلاية، ثم راح يعلقها فى رقبة وانغ ياو تشين، وعندئذ راح يداعب رقبتها بأصابعه وهو يعلق الغلاية، مما جعل ابتسامة جميلة ترتسم على وجه الزوجة الضريرة وانغ ياو تشين.

- ٢ -

وقبل الغروب، كانا قد انتهيا من بيع جميع الصحف والمجلات لذلك اليوم، وسارعا مبكرين إلى مكتب بريد شى قانغ لحجز صحف ومجلات اليوم التالى، وبعد أن انتهيا من حجز الصحف، سلكا طريق العودة إلى مسكنهما وهما متشابكا الأيدى، وما إن وصلا إلى الفناء، حتى سمعا صوت شجار جيرانهما آه سان وزوجته، حيث سمعا صوت آه سان يسب زوجته قائلا: "أراكِ كتلة من الدهون، وجهك ملىء بالتجاعيد، بل وزادت تجاعيد وجهك اليوم، فلتحكمى بنفسك ماذا أنتِ تشبهين؟ شيطانة! وجه غولة! مرعبة!"، ثم سمعا صوت زوجته ترد عليه: إنك ترانى هكذا قبيحة، ولكنى أراك أقبح منى بكثير!"

"تنفقين أموال ذلك المسكين فى بيوت التجميل، أرى أن من الأفضل أن تدفعى لى هذه الأموال، وأقوم أنا بلحم شفاهك مستخدما مسدس اللحام!" فقد كان زوجها آه سان حدادا. وما إن يزداد وطيس الشجار بينهما، حتى يبدو مثيرا للضحك، فقد تسمع أثناء ذلك أصوات تحطيم الأوانى والأطباق. وفى النهاية، سمع الضريران صوت زوجة آه سان تسب زوجها: "إنك تشبه ضفدع الطين، ويرد عليها آه سان وقد هدأ كثيرا: وأنتِ تشبهين حبة الفاصوليا الخضراء!" وهنا يهدأ الشجار ثم ينتهى بضحكات مسموعة.

وبمجرد أن تناول ووتسه مين وزوجته وجبة العشاء، خلدا إلى الفراش، وهكذا احتوتهم ظلمة الليل وراحت وانغ تفكر فى سروال وو القطنى الذى هو بحاجة لتزويده ببعض الحاشيات القطنية ليكمل معه فصل الشتاء القارس، ولكن اقتراب شفتى وو من أنفها ووجنتيها قطع تفكيرها، حيث راح وو يقترب منها بحرارة حتى استجابت له والتحما سويا تحت ضوء القمر، وفجأة سمعا صوت الجدة ليو التى كانت تعانى من نوبة سعال شديدة؛ حيث كانت الجدة ليو آخر من ينام فى هذا الفناء، وكانت قبل أن تخلد للفراش كل يوم تصاب بنوبة طويلة من السعال، وكانت المياه فى وسط الفناء، وكانت تروح تبصق لفترة طويلة، ولم تكن تغير عادتها هذه طوال العام، وما إن تنتهى الجدة ليو من نوبات السعال والبصق، حتى يخيم الليل ويلف بظلمته جميع من فى الفناء.

وباتت وانغ فى أرق طوال الليل، وليس هناك فرق بين تأرق الأعمى أو كونه يغط فى النوم العميق، وعادت وانغ لتفكر فى أمر الثور من جديد، تُرى هل أكل الناس لحمه بعد موته؟ ثم مالت برأسها على ذراع وو، وطلبت منه أن يحكى لها حكاية، فراح وو يقص عليها حكاية من نسج خياله، ولم يكن هو نفسه يفهم منها شيئا، فقد كان منهكا وفجأة غلبه النعاس.

وفى صباح اليوم التالى، جلست وانغ إلى مائدة الطعام وهى تتجشأ بصعوبة، وبعد أن انتهى وو من شرب سلطانيتين من الماء، راح يسأل وانغ عن سبب توقفها عن الأكل، وعندئذ أحست هى أن هناك شيئا حارا يوخذها فى صدرها، فبدأت تتقيأ وتخرج كل ما فى جوفها، فأسرع وو نحوها وأخذ يربت على ظهرها، وأحضر لها كوبا من الماء الدافئ لتتمضمض به.

"ماذا ألم بك؟" سألها وو، "أراك كثيرا ما تتقيئين، أرى أنه من الأفضل أن نذهب إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات".

"لم أنم جيدا ليلة أمس، فقد كنت مشغولة بالتفكير فى أمر الثور، لقد قتل الإنسان الثور، وأصبح بقتله بطلا!" أجابته وانغ ياو تشين.

"لا داعى أن تذهبى معى اليوم لبيع الصحف".

"سأشعر بالضيق أكثر إذا مكثت هنا، فأنا لا أطيق البقاء فى البيت"، وكعادتها حملت وانغ غلايتى الماء على ظهرها بعد أن نظفت مائدة الطعام، ووصل الزوجان إلى ناصية شارع شانغ خونغ حيث ينصبان كشك الصحف، وقد كان يقف خلف سور السوق الزراعى العديد من الأجراء الفلاحين مثل عمال النقاشة والدهان، وعمال تركيب البورسلين، وعمال حمل قطع الفحم، وعمال صناعة الأثاث وغيرهم. وفجأة سمع الضريران صوت تشاجر عاملين اختلفا فيما بينهما أيهما يذهب مع صاحب العمل، وعلا صوت أحدهما يبرر بأنه أحق بالعمل فهو قوى البنية ويملك القوة البدنية للقيام بهذا العمل، وقال الثانى إنه سيطلب أجرا أقل من صاحبه، وفى النهاية وقع اختيار صاحب العمل على ذلك الذى يطلب أجرا أقل، وهنا لم يكن من صاحبه إلا أن راح يسب صاحب العمل بأنه بخيل لئيم.

وبدأ الكثير من الناس يتوافدون على كشك وو وزوجته لشراء الصحف، وكان من بينهم المتعجل فى طلبه ومنهم المتريث، ومنهم من تفوح منه رائحة الثوم أو البصل أو الكراث ومن تفوح منه رائحة السجائر، وقد كان باستطاعة وانغ ياو تشين تحديد ماذا أكل كل منهم فى الإفطار من خلال شم الروائح المنبعثة إليها من أفواههم. كما كان من بين هؤلاء الناس من لا يتوقف عن التجشؤ بصوت مسموع، حتى كانت تفوح منه رائحة الفجل النفاذة التى عبقت المكان بأكمله.

وراح وو تسه مين يستفسر من العجوز بائع السجائر عن أخبار اليوم.

فقال العجوز "هل تعرف دولة الهند؟ لقد تعرضت الهند لزلزال عنيف وصل ضحاياه حتى الآن إلى ما يزيد عن 20 الف شخص". وأن هذه الدولة بها الكثير من الديانات، وتتعرض لهذا العدد من الكوارث؟"

راح وو يتمتم فى نفسه، ولكن الهند تتعرض سنويا للفيضانات العاتية فلماذا تتعرض هذا العام للزلازل؟

"آه، إنه حتى ولو انهارت السماء وخسفت الأرض، فإن الإنسان سيكون عاجزا تماما أمام ذلك".

ثم قال العجوز: "وانظر إلينا فى بلدنا، فإننا نعيش هنا فى أمن وسلام، ولكن من يعلم إذا ألم بنا إعصار يوما ما، فإنه سيلقى بنا إلى البحر لنكون طعاما للأسماك.

ولم تتمالك وانغ نفسها من هول الخبر، وراحت ترتعش بشدة، ثم مضت تفكر ما طبيعة الإحساس بالزلزال؟ وهل يتطاير البشر أثناء الزلزال إلى السماء مثلهم مثل التراب؟ وهل يعم العالم أصوات الدمار والانهيار لحظة الزلزال؟ وهل يقوى الزلزال على أن يفرق بين يدها ويد وو المتشابكتين جيدا؟ وهنا غمرتها كآبة وحزن شديد، مما جعلها تشعر بالهذيان والغثيان، حتى كادت تنهار كليا.

"أشعر بدوار شديد، وأريد أن أعود إلى المنزل". قالت وانغ مخاطبة زوجها.

"لقد أخبرتك بأنه لا داعى لأن تأتى معى اليوم، ولكنك لم تسمعى كلامى"، رد وو ثم قال:"سأصحبك إلى المنزل".

"لا داعى، انتبه أنت إلى الصحف، أما أنا فأعرف الطريق جيدا" ثم سلمت وانغ إلى زوجها كيسا من القماش مملوءا بالفكة، وأخذت عصا البامبو وسلكت طريق العودة إلى الفناء، وعندما كان وو يستمع إلى صوت دقات العصا على الأرض، كان يعلم أن زوجته تسلك الطريق الصحيح، حتى بدا مطمئنا عليها.

وكانت وانغ إن مى زوجة آه سان فى إجازة فى تلك الأثناء، وكانت حينها تقف عند فسقية المياه لتنظيف أوعية المخلل، وما إن رأت الضريرة وانغ الوسيمة تقترب منها وهى شاحبة الوجه، حتى رفعت قامتها لتحية جارتها:" كيف رجعت اليوم مبكرا؟ وأين زوجك؟"

فردت وانغ التحية وهى تلهث: "أشعر ببعض التعب، فعدت مبكرا، وهو لا يزال عند الصحف".

وكانت وانغ إن مى إنسانة عطوفة طيبة القلب، حيث أخذت بسرعة فوطة يد صغيرة لتنشف يدها المبتلة، ثم فكت بيجامتها قليلا، وراحت تسأل وانغ ياو تشين:

"سأعد لك بعض الطعام، ما بك؟".

"أشعر بغثيان شديد"، أجابتها الضريرة وانغ التى كانت تسير نحو باب مسكنها، ثم أخرجت المفتاح لتفتح الباب.

"إنك بالتأكيد حامل"، قالت وانغ إن مى وهى تبتسم.

"حامل؟" ثم سكتت وانغ ياو تشين قليلا، ثم قالت": كيف ذلك؟"

"ولما لا؟"، ردت وانغ إن مى ثم عادت تسألها: "ألستما ـ أنت وزوجك وو تسه مين ـ تنامان سويا وعلى فراش واحد كل يوم؟"

وعندئذ بدت وانغ ياو تشين مرتبكة أمام جارتها، وغمرت وجهها أشعة شمس الظهيرة الحادة، وقالت جارتها وانغ إن مى إن بإمكانها أن تذهب معها إلى المستشفى بعد تناول وجبة الغداء، فوافقتها وانغ ياو تشين على الفور، حيث أحست بأن هناك ضرورة كبيرة لأن تذهب إلى المستشفى للاطمئنان.

ـ ٣ ـ

وعند الغروب، عاد وو تسه مين إلى الفناء يلفه صمت مريب، وعندما دفع باب مسكنه، لم تشم أنفه رائحة طعام الغداء التى أعدته وانغ ياو تشين، بل إنه لاحظ أن المطبخ يبدو ساكنا ومظلما، فأخذ يساوره القلق، فأنزل فى عجالة حامل الصحف وبقايا

الصحف والمجلات من على ظهره وراح ينادى على زوجته، فأجابته وانغ والتى كانت مضطجعة على السرير تبكى بشدة.

"ما الذى يبكيكِ؟" سألها وو ثم راح يمسح بيده دموع زوجته، وأحست يده بأن بشرتها الخشنة قد أصبحت ناعمة قليلا ومبللة من كثرة البكاء.

"إننى حامل". أجابته وانغ ياو تشين، وهى تشعر ببعض الخزى مما تفوهت به.

فراح وو تسه مين يربت بكفه على ركبته، فلم يكن بمقدوره أن يتحمل مثل هذا الخبر المفاجئ، ثم مضى يحدث نفسه، حامل؟ هكذا سأصبح أبا؟ ثم شعر ببعض القلق والانفعال من هول الخبر الذى لم يكن يتخيله، ولكنه عرف جيدا كيف يواسى زوجته ويخفف عنها قلقها، حيث قال: "أنت حامل وهذا خبر سعيد جدا، فلماذا أراكِ تبكين؟ وكيف عرفت أنك حامل؟"

لقد ذهبت برفقة زوجة آه سان إلى المستشفى، وأخبرنى الطبيب بأننى حامل"، ومضت تكمل كلامها وهى تنشج: "وأخبرنى الطبيب أيضًا أن حجم الطفل الآن صغير جدا، وأن الوقت مناسب إذا كنا نرغب فى إجهاضه".

"ولماذا الإجهاض؟ إننا أخيرا سيصبح لدينا طفل". هكذا مضى وو تسه مين يواسيها وقد بدا أنه مهموم بعض الشىء.

"ولكننى أخشى أن يولد الطفل أعمى". وأخذت عيناها تذرف الدموع، ثم قالت: "وأنا لن أكون سببا لأن يولد طفلنا أعمى".

"وهل قال الطبيب إن هذا مرض وراثى؟" هكذا أخذ وو تسه مين يستفسر من زوجته عما أخبرها به الطبيب، ثم أضاف: "فأنا لم أولد أعمى كما تعلمين".

"ولكننى ولدت عمياء، ولقد أخبرنى الطبيب أن العمى ليس وراثيا، ولكن ما الأمراض التى يصعب انتقالها من شخص إلى آخر فى زماننا هذا؟" هكذا أجابته وانغ ياو تشين، ثم مضت تنصح زوجها قائلة: "والأفضل ألا نكون سببا فى مثل هذا الذنب الكبير".

وبعد أن جفف وو تسه مين دموع زوجته المهمومة، ذهب مسرعا إلى المطبخ ليعد الطعام، وما إن دخل المطبخ حتى فتح محبس الغاز ثم أشعل عودا من الكبريت حتى سمع صوت لهيب النار، واطمأن كأنه قد رأى بعينيه اشتعال اللهيب الأزرق، ثم راح يسبح فى خياله ويتذكر عندما كانت عيناه تبصران وتتمتعان بالضوء منذ ما يزيد على عشرة أعوام مضت، فى ذلك الزمان، كانت عيناه تبصران الأناناس الذهبى والسلجم الأخضر والسحب الحمراء والقوارب الزرقاء وغيرها من الأشياء الجميلة، ومضى يفكر أنه لا يستطيع أن يتخيل أن ابنه سيفقد نعمة النظر إلى تلك الأشياء الجميلة طوال حياته، إنها نعمة من الإله!

"ولكن لماذا وهب الإله بعض الناس عيونا ولم يمنحهم القدرة على الإبصار بها؟" هكذا مضى وو تسه مين يفكر فى هذه المسألة وهو مهموم، ثم مد يده وأخذ حفنة من الأرز ووضعها فى إناء من الألومنيوم، وبدأ يغسلها تحت ماء الصنبور، وبعد أن غسل الأرز جيدا، أضاف إليه قليلا من الماء ثم وضع الإناء على الموقد ليصنع الحساء.

وهكذا كانت وجبة العشاء التى أعدها تلك الليلة بسيطة للغاية، وبعد أن تناولا وجبة العشاء، خلد وو تسه مين وزوجته كعادتهما كل يوم إلى الفراش مبكرا، وعندما اضطجعا على السرير، سمعا صوت خرير الماء المزعج عند الفسقية، حيث كان هناك بعض الجيران يقوم بغسل المسحات، ومنهم من كان مشغولا بتنظيف الأوانى، ومنهم من كان يسب قطته بصوت مسموع لأنها غافلته وأكلت من طعام الأسرة، ولفت ظلمة الليل وو تسه مين وزوجته وهما متشابكا الأيدى وفى حيرة وقلق شديدين.

"فلتصدقنى القول، ما الفائدة لأن يرى الإنسان بعينيه جميع الأشياء؟" سألت وانغ ياو تشين زوجها بينما كانت تسند ذقنها على كتفه.

"فى الحقيقة لا أرى أدنى فائدة لأن يرى الإنسان بعينيه جميع الأشياء، فالشوارع مليئة بالقاذورات وتعج بالصخب والفوضى ويختلط فيها الحابل بالنابل، والناس يرسمون على وجوههم

ابتسامات ماكرة، وتنتشر فيما بينهم المجاملات واللقاءات الرتيبة". وهكذا أحس وو تسه مين أن إجابته هذه سترفع من معنويات زوجته المحطمة، وربما ستغير من فكرتها فى إجهاض الطفل.

"ولتأخذنى أنا مثالا، فأنا منذ ولدت لم أر بعينىّ شيئا قط، ولكننى أعرف الآن كل الأشياء، فهل ترانى أجهل شيئا؟" سألته وانغ ثم صدقت على كلامها قائلة: "إذا صح العقل، فليس للعيون من فائدة كبيرة للإنسان".

"صدقت". وهنا بدا أن وو تسه مين يريد أن يجهش بالبكاء، وهو يرد على زوجته.

"ولنفترض أن طفلنا سيولد أعمى، فما العمل حينئذ؟" سألت وانغ ياو تشين.

"نعالجه، حتى تكون عيناه فى صحة جيدة". رد وو تسه مين فى عجالة ودون أن يأخذ وقتا للتفكير فى سؤالها.

"أرى أنه لا يزال لديك أمل فى أن الطفل سيبصر هذه الدنيا". تنهدت وانغ ياو تشين قليلا ثم سألت زوجها: "ومن أين لنا بتلك المبالغ الكبيرة التى تكفى لعلاجه؟"

"من بيع الصحف". وفجأة أخذ وو تسه مين يفكر فى عينيه الضريرتين اللتين كان يمكن لها أن تبصرا إذا لم تكن أسرته فقيرة فى ذلك الحين، وعندما تحسنت أحوال أسرته قليلا، كانت عيناه قد تدهورتا ولم يعد هناك أدنى أمل فى شفائهما.

"أرى أنه يجب أن نجمع له تبرعات" . فكرت وانغ ياو تشين فجأة في هذا الحل المفيد لمشكلتهما، ثم قالت: "ألم تسمع بخبر ذلك الطفل الذى أصيب بمرض كرات الدم البيضاء، ولم يكن لدى أسرته المال الكافى لعلاجه، وقام ولى أمره بطلب التبرعات من أهل الخير لعلاجه؟ وقد سمعت أنه جمع له فى وقت قصير جدا عشرات الآلاف من اليوانات!"

"ولكن طفلنا لم يولد بعد، كما أننا لا نعلم إن كان سيولد أعمى أم بصيرا" . أجابها وو تسه مين وهو فى حيرة شديدة.

"ولكن الوقت سيكون متأخرا كثيرا إذا انتظرنا معرفة حقيقة عينيه" . ردت وانغ ياو تشين.

"ألا ترين أنه إذا لم يكن الطفل أعمى فإننا سنكون منافقين إذا قمنا بجمع التبرعات؟ سأل وو تسه مين زوجته وهو مندهش.

"وما المشكلة، سنبادر بالتبرع بكل المبالغ التى جمعناها لأى طفل أعمى" . أجابته وانغ ياو تشين التى كانت دائما سريعة البديهة فى ردها على زوجها.

وأخيرا توصل الزوجان بعد نقاش حاد دار بينهما لأكثر من ساعة إلى رأى واحد وهو: "أن يبادرا بجمع التبرعات لطفلهما الذى لم يولد بعد، وأن يطلبا من العجوز صاحب كشك السجائر أن يوصى ابنه بمساعدتهما فى كتابة إعلان جمع تبرعات؛ حيث كانا

قد سمعا أن ابن العجوز بائع السجائر يعمل مدرس لغة، وأن أسلوبه سيكون بالتأكيد ماهرا فى كتابة مثل هذه الإعلانات، وأن يقوما بتعليق الإعلان أمام كشك الصحف، وينتظرا مساعدة أصحاب القلوب الرحيمة.

وبالطبع ستكون ورقة الإعلان حمراء اللون، وبعد أن انتهى وو تسه مين وزوجته من النقاش حول موضوع الإعلان، كان السكون قد غطى الفناء، حيث كان الوقت يبدو أنه التاسعة أو العاشرة مساء، ثم تناقشا قليلا فى طقس الغد، وأخيرا نام الضريران وهما راضيان عما توصلا إليه من نتيجة.

- ٤ -

وبعد بضعة أيام، كان كشك صحف الضريرين بناصية شارع تشانغ خونغ معلقا عليه هذا الإعلان:

نحن زوجان ضريران، وكم نتمنى أن يكون لدينا طفل، وها هو الآن جنين فى بطن أمه، ولكننا نخشى أن يولد الطفل ضريرا فالعالم الذى نعيش فيه مضىء، وإننا سنكون قاسيين إذا حرمنا طفلنا من رؤية هذا العالم المضىء؛ لذا فإننا نناشد أصحاب القلوب الرحيمة أن يمدوا لنا يد العون لإنقاذ هذا الطفل البرىء. أما إذا رزقنا بطفل بصير، فإننا سنسارع بتقديم تبرعاتكم لطفل ضرير

آخر، ونعاهدكم على ذلك، فيا محبى الحياة والنور، مدوا إلينا يد العون. الضريران وو تسه مين ـ وانغ ياو تشين.

ووضع الضريران كرتونة أحذية فارغة أسفل الإعلان، كان العجوز بائع السجائر قد ساعدها فى تغليفها لتكون صندوقا لجمع التبرعات، ورأى الناس الذين توافدوا عليهم لشراء الصحف ذلك الصندوق، فمنهم من أخذته الشفقة بحال الضريرين وألقى داخل الصندوق ببعض الفكة، ومنهم من نظر إلى وانغ ياو تشين نظرات مليئة بالشك، ثم مضى إلى حال سبيله، ومنهم من راح يتهامس مع صاحبه قائلا: "ومن يعلم إن كانت زوجته حاملا أم لا؟ فالناس الآن يمكن أن يفكروا فى أى وسيلة مهما كانت لجمع الأموال".

وهنا خرج إليهم العجوز بائع السجائر يؤكد لهم حقيقة الأمر: "إنها بالتأكيد حامل، ولتنظروا إلى وجهها الأصفر الذابل".

"إن الشعب الصينى شعب ذو بشرة صفراء".

وفى اليوم الأول، دخل الصندوق ثلاثة جنيهات وسبعة وستون قرشا، فأخذ الضريران المبلغ وعبرا الشارع المزدحم عائدين إلى مسكنهما وهما فى حزن شديد. واشتدت رياح الخريف، وأخذت أوراق الأشجار تتطاير فى عرض الطريق، وانتشرت أكشاك بيع خضراوات الخريف، وبدا بعض الناس مذعورين من أصوات سيارات الإطفاء.

وبعد أن عادا إلى مسكنهما وأغلقا باب غرفتهما، أخذا يفكران مليا فى هذه التفاصيل: إذا جاءت لحظة ولادة الطفل، فإنها من الممكن أن تكون ولادة ميسرة أو ولادة عسرة، ولكن هذا كله ليس هو الشىء المهم، ولكن الأهم أن يولد الطفل بسلام. وإنه من الممكن أن يكون طفلا أو طفلة، ولكن ليس هذا هو الشىء المهم، والأهم أنه سيكون لهما طفل، وعندما يخرج الطفل من بطن أمه، من الممكن أن يخرج وسط ظلمة الليل الحالكة أو يخرج وسط أضواء النهار المنعشة، إذا كان الطفل أو الطفلة تملك القدرة على رؤية الأشياء، فإن أول ما سيراه أو ستراه هو وجه هذين الضريرين الساكن اللذين بدت عليهما علامات الشيخوخة مبكرا، وسيلمس أول ما يلمس شعر رأسهما الخفيف وأيديهما الخشنة، ثم ماذا سيرى أو سترى بعد ذلك؟ هل سيرى أو سترى القمر الوضاء وسط السماء الزرقاء ليلا؟ أم القمر الوضاء ذا اللون الذهبى؟ أم الأزهار الذابلة تحت السماء الصافية؟ أم الجدة العجوز التى تتمشى فى الشارع عند الغروب تدفع بعربة حفيدها وهى تهدهده بأغان جميلة؟ أم سيرى أو سترى زوجين من طيور السماء التى نزلت إلى نافذة الغرفة؟ يا إلهى، إذا كان لدى الطفل أو الطفلة القدرة على الرؤية، فإنه أو فإنها سترى والديها أمام عينيها وكأنهما كتلة حجرية صامدة، وهذا سيزيد من شعوره أو شعورها بالوحدة. وإنهما سيحكمان على إن كان الطفل أو الطفلة سعيدة أم حزينة من خلال

إحساسهما بذلك فقط، ولن يكون لديهما القدرة على التواصل المباشر والصريح مع طفلهما أو طفلتهما، وقد جعلت كل هذه الأفكار والتخيلات الضريرين يشعران بالكآبة، بل إنهما لم يستطيعا أن يتخلصا من ضغط هذه الأفكار عليهما.

وهكذا أرهقهما التفكير فى أمر الطفل طوال يوم خريفى كامل. وما الاسم الذى سيطلقانه عليه بعد ولادته، وما الروضة والمدرسة التى سيلحقانه بها، وما الملابس التى سيرتديها، وما العمل إذا تعرض الطفل لظلم ومضايقة الآخرين له، وبالطبع كان أكثر ما شغلهما هو كون الطفل سيولد بصيرا أم ضريرا. وكم يتمنيان أن تكون عينا الطفل مضيئة، ولكن هذا الضوء الذى يتنافى مع حالتهما قد جعلهما فى قلق شديد.

"ربما سيكون الأفضل أن يولد الطفل ضريرا". قالت وانغ ياو تشين بينما كانت تتسلى ببعض بذور اللب.

"ولكن إذا رأى الطفل أول ما رأى والديه الضريرين، فإنه حتما سيعتقد أن الناس جميعا يعيشون فى ظلام دامس". قالت وانغ ياو تشين، بينما كانت تلقى من فمها ببعض بذور اللب.

"ولكن حياة الطفل لن تنحصر فيما بينى وبينك فقط، فهو قد يخرج إلى المجتمع الملىء بشتى صنوف البشر، بل إنه سيشعر بالنقص والإحباط إذا ما اكتشف أنه يختلف عن غيره من البشر". رد وو تسه مين والذى كانت تصدر عنه تنهدات مسموعة.

"أرى أنه من الأفضل أن نسارع بإجهاض الطفل". قالت وانغ ياو تشين والتى بدأت تجهش بالبكاء وبدت مرتبكة، حتى إنها ابتلعت عن دون قصد بعضا من بذور اللب.

ولم يعد الضريران يعيشان تلك الحياة الهادئة التى كانا ينعمان بها من قبل، فقد بدأت تدب بينهما المشاحنات الزوجية مثل جيرانهم آه سان وزوجته وانغ إن مى، ولكن صوت شجارهما كان ضعيفا جدا، فلم يكن يسمعه أحد فى الفناء غيرهما. ولم تعد تجمع بينهما الألفة والمودة المعهودة، حتى فى أوقات النوم كان كل منهما يأخذ طرفا من السرير مبتعدا عن الآخر، حتى بدأ وو تسه مين وزوجته يشعران بأن الأيام الجميلة التى مضت ذهبت ولن تعود إلى الأبد.

وسارت تجارتهما فى بيع الصحف والمجلات رائجة على الدوام، ولكن أعداد المتبرعين لعلاج الطفل كانت قليلة لا تذكر؛ فلم يدخل الصندوق خلال الخمسة عشر يوما الماضية سوى ما يزيد قليلا عن عشرين يوانا، وهذا المبلغ البسيط بالتأكيد لا يساوى شيئا أمام علاج أمراض العيون، ومنذ ذلك الحين بدأ يساورهما القلق والهم، حتى تلك الصحف التى كانا يبيعانها لم تكن تتوقف عن بث الكثير من الأخبار السيئة إلى مسامعهم: أخبار خسارة الصين وتنظيم دورة الألعاب الأوليمبية بفارق صوتين، وتغيرات على الساحة السياسية الروسية شملت إصدار يلتسين أوامر بتطويق مبنى الكرملين، ثمَّ

إعلان حالة الطوارئ فى جميع أنحاء روسيا، زيارة الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات للصين، مقتل ما يزيد عن أربعين شخص فى بحيرة تشيان تانغ جيانغ قوان، طائرة ركاب بولندية تتعرض للخطف من قبل جماعة إرهابية، إعلان نجم كرة السلة الأمريكى مايكل جوردان أن مشوار حياته مع كرة السلة قد وصل إلى قمته وأنه يعتزم الانسحاب من الملاعب، الأمر الذى أدى إلى تحطيم قلوب الكثير من معجبيه وغيرها من الأخبار السيئة.

وهكذا بدأت تتناقل إلى مسامع الضريرين الأنباء المختلفة عن ذلك العالم المشرق والمضطرب فى آن، والتى كان من بينها نتف من الأخبار السارة، ولكن معظمها كان بالطبع أخبارا سيئة، وطبقا للفحوصات التى أجرتها الزوجة الضريرة وانغ ياو تشين، فقد كان الطفل ينمو نموا طبيعيا فى بطنها.

وانشغل الزوجان كغيرهما من أهل البلدة بالبدء فى تخزين كميات من الطعام اللازم لفصل الشتاء، من خضراوات وجزر وسلجم وبصل وبازلاء، ثم شرعا فى إحكام غلق النوافذ وتعليق بعض من المخللات والثوم أعلاها. وفى ذلك الحين، كانت رياح الخريف العاتية قد أسقطت جميع أوراق الأشجار التى راحت تتطاير إلى رءوس المارة، حتى كان من السهل أن تقبض على بعضها وتفركه ليكون مسحوقا ناعما من أوراق الأشجار، وامتلأت شوارع البلدة بروائح النباتات، وراحت القطط تجرى هنا وهناك وتختبأ

عن أعين الناس، وامتلأت المنازل بزغب القطن المتناثر عن قيام بعض السيدات بأعمال التبطين لملابس الشتاء، وعندئذ كان حمل وانغ ياو تشين قد دخل فى مرحلة صعبة، أجبرتها على التخلى عن مرافقة زوجها فى الخروج إلى كشك الصحف، وكيف لا وقد توقف الندى وبدأ نزول الصقيع، واقترب دخول الشتاء القارس وهطول الثلوج، فهطول الثلج سيكون إيذانا بدخول عام جديد، وتأثرت أصابع يدى وو تسه مين ووجنتاه بالرياح الخريفية العاتية، والتى جعلت يديه ووجنتيه وكأنهما مثل جلود الأبقار المجففة، بل وتركت آثار الرياح فى يديه بعض الشقوق، وقد قيل إن هذه الشقوق كانت وردية اللون، وبالتالى فإن الطفل سيكون لونه ورديا أيضا، لأن تلك الشقوق تتصل مباشرة بالجنين، ومنذ ذلك الحين زاد اهتمام وانغ ياو تشين بالألوان، حقا لقد كان داهية فى عالم الألوان.

- ٥ -

وفى غروب شمس يوم من أوائل أيام فصل الشتاء، عاد وو تسه مين إلى منزله مهموما؛ ففى ذلك اليوم لم يدخل صندوق التبرعات أى مساعدات على مدى يومين كاملين؛ حيث كانت أيدى الناس تلتقط فى عجالة سريعة ما يحتاجونه من صحف ومجلات، ثم يمضون إلى حال سبيلهم دون أدنى التفاتة إلى الصندوق.

"إنهم الآن حتى لا يتناقشون فى أمر الإعلان كما كانوا يفعلون من قبل". هكذا خاطب وو تسه مين زوجته وهو يجهش بالبكاء، ثم أضاف: "لقد تدهورت ورقة الإعلان كثيرا، فما رايك فى أن نطلب من أحد الأشخاص مساعدتنا فى كتابة ورقة أخرى جديدة؟"

وكانت وانغ ياو تشين نادرا ما ترى زوجها يبكى هكذا، بل إن دموع الرجال كانت بالنسبة لها صاعقة كبيرة، كما لو أن السماء سقطت والأرض انشقت من تحتها. ومن خلال إنصاتها وتحسسها جو الصمت والرطوبة خارج المنزل، استطاعت وانغ ياو تشين أن تعرف بنفسها أن السماء تثلج، وأن بعضا من أطفال الجيران يمرحون فرحين بهذا الجو الجميل مرتدين الثياب الزاهية، وقد بدا الأطفال يمرحون فى سرور. وكانت وانغ ياو تشين قد سمعت أن نبات الزعرور الجبلى يكون أكثر احمرارا ونضرة وحلاوة فى فصل الشتاء، كما أن حساء شرائح لحم الغنم والمخلل يكون أكثر دفئا للمعدة. ففتحت باب الفريزر، فاصطدم وجهها بكتلة من البرودة الشديدة، ثم أخذت نصف لفة من لحم الغنم لكى تقوم بتقطيعها شرائح صغيرة، ثم تعد لزوجها سلطانية حساء طازجة حتى يتوقف عن البكاء، فهى تعرف جيدا أن الرجال يحتاجون لمثل هذا التدليل، ولكنها لا تعلم إن كانت هذه الطريقة ستجدى مع زوجها أم لا.

وما إن شرب وو تسه مين الحساء، حتى تحسنت حالته النفسية كثيرا، مما جعل وانغ ياو تشين تفرح فى سرها، وفجأة سمع وو تسه

مين وزوجته صخبا وبكاء جنونيا مرعبا خارج مسكنهما، فارتمت وانغ ياو تشين فجأة وبلا قصد فى حضن زوجها، ثم سمعا بعد ذلك صوت جارتهما زوجة آه سان تطرق الباب وهى تصرخ: "افتحا الباب، أسرعا!"

وما إن فتح وو تسه مين الباب، حتى اصطدم بزوجة جاره آه سان تبكى قائلة: "آه من تلك العجوز الغولة الجدة ليو، لقد ضربت المقص فى بطن حفيدها، وهى الآن تتشاجر مع زوجة ابنها، وفشلنا فى أن نصلح بينهما، إن الأمر خطير جدا، أسرعا إليهما، كما أن آه سان غير موجود الآن بالمنزل، فما العمل!"

"وأين ابن الجدة ليو؟" سألت وانغ ياو تشين.

"لقد ذهب إلى قوانغ جوو(١) لتسويق أحذية المصنع الذى يعمل به، وربما لن يعود إلا بعد خمسة عشر يوما".

"يا إلهى، إن الأمر خطير جدا، وربما ستُزهق أرواح بشر، ونحن لا نقوى على تهدئة الموقف". تعجبت زوجة آه سان من هول الموقف وكانت كانت لا تزال تجهش بالبكاء.

وهرع وو تسه مين فى عجالة إلى مسكن الجدة ليو، وعندما دخل باب المسكن، كانت الجدة ليو وزوجة ابنها لا تزالان تتشاجران،

---

(١) قوانغ جوو: مدينة قوانغ جوو أو كانتون عاصمة مقاطعة قوانغ دونغ فى جنوب الصين، والتى تعتبر واحدة من أكبر المدن التجارية وأهمها فى الصين. (المترجم)

ثم سمع وو تسه مين صوت سيل من الشتائم كانت تتقاذفها العجوز وزوجة ابنها، وكانت الغرفة تعج بغضب شديد وتفوح خلالها روائح كرات الفحم الكريهة، وانقض وو تسه مين بسرعة إلى مصدر الشتائم، ثم أمسك بذراع امرأة سمينة، وفجأة سمع تلك المرأة تسبه قائلة: "اتركنى أيها الأعمى وإلا قتلتك، اتركنى أذبح هذه العجوز التى قتلت ابنى تشيانغ تشيانغ".

وما إن سمع وو تسه مين سيل السباب الذى وجهته له المرأة السمينة، حتى خمدت همته، فخفف من قبضته على ذراعها. وفجأة سمع صوت ابنها تشيانغ تشيانغ والذى كان فى السادسة من عمره، ثم توصل إليه بمساعدة زوجة آه سان، حيث كان الطفل ملقى أسفل النافذة ولايزال جرحه ينزف بشدة.

"إن تشيانغ تشيانغ لا يزال على قيد الحياة، فلنسارع بنقله إلى المستشفى"، هكذا راح وو تسه مين ينادى أم الطفل، بينما بدت يده اليمنى ملطخة بدم تشيانغ تشيانغ.

وما إن سمعت المرأة خبر أن ابنها لا يزال حيا، حتى انقضت عليه ملهوفة، وفى هذه الأثناء كانت زوجة آه سان قد استغاثت برجل قوى البنية لمساعدتهم فى حمل الطفل إلى المستشفى، وهكذا تجمع الجيران لمساعدة الطفل المصاب، ولكن الجدة العجوز كانت لا تزال هنالك تلعن حفيدها المصاب.

وكان السبب فى هذه الحادثة أن تشيانغ تشيانغ هو طفل الأسرة الوحيد المدلل، وكانت طلباته جميعها مجابة من الكبار، وفى ذلك اليوم تحديدا، كانت جدته العجوز ليو ترغب فى شربة حساء، ولكنه كان يفضل أن يأكل الخبز، فاستجابت الأم لرغبة الطفل المدلل، وراحت تعد له الخبز الذى طلبه، فعلقت جدته العجوز على ذلك قائلة: "آه من دلال الأطفال فى زماننا هذا!" فردت عليها زوجة ابنها وهى غير راضية عن كلام الجدة: "ليس الأطفال فقط بل والكبار أيضا!"

"آه منكِ أيتها العجوز المعمرة، العجوز التى تعيش عالة علينا، والتى تستعجب أمى لماذا لم تمت حتى الآن؟" هكذا راح الطفل تشيانغ يسب جدته العجوز.

"لقد ربيتك من صغرك والآن تتمنى لى الموت!" ردت الجدة بينما كانت تأخذ بالمقص وتنشغل بتفصيل حذاء، فألقت بالمقص نحو تشيانغ تشيانغ لكى تخوفه، ولكن الأمر تحول إلى أخطر من ذلك بكثير، فقد أصاب المقص بطن الطفل.

وفجأة عمت الفوضى جميع أرجاء الفناء، وهب الجيران إلى المستشفى للاطمئنان على الطفل المدلل تشيانغ تشيانغ، وعاد الجميع من المستشفى فى وقت متأخر من الليل، عادوا منهكين بعد أن اطمأنوا على الطفل الذى تعدت حالته المرحلة الحرجة.

ولم يسمع أحد فى ذلك اليوم صوت الجدة العجوز عند الفسقية، حيث كانت تخرج إليها يوميا ولا تتوقف عن الحديث بصوت مقلق.

وفى صباح اليوم التالى، وعندما عادت أم الطفل إلى المنزل لتحمل بعض الأموال اللازمة لإقامة تشيانغ فى المستشفى، اكتشفت أن الجدة ليو انتحرت شنقا، وأنها كانت لا تزال معلقة بسقف الغرفة.

وهكذا قضى وو تسه مين وزوجته خمسة عشر يوما فى هذا الجو الصاخب والكئيب، وقد كان الطقس فى الخارج باردا، وبدأ الناس بتغيير الملابس القطنية، وقرر وو تسه مين وزوجته أنهما لن يمضيا فى جمع التبرعات لطفلهما.

"إننا لن نرضى أن يجد طفلنا كل ما يحتاج إليه مثل تشيانغ تشيانغ الذى كان تدليل أسرته له السبب فى ذلك الحادث الأليم الذى ألم به". هكذا قالت وانغ ياو تشين بينما كانت تضع يديها على بطنها تتحسس الطفل.

"لابد وأن يشعر الطفل أن هناك شيئا ما ينقصه، فالشعور بالنقص يحفز الإنسان على الجد والعمل".

"تقصدين أن يكون الطفل مثلنا تماما". رد وو تسه مين ثم أضاف: "فنحن فقط الذين لم نتشاجر قط بين أهل الفناء، لأننا لا يرى أحدنا الآخر، فأنتِ أقرب الناس لى".

"وأنت أيضا".

وتعانق الضريران عناقا حارا كما لو أنهما عروسان فى ليلة الدخلة، وقد تناسا تماما مرض طفلهما الذى لم يولد بعد، فالطفل ما هو إلا هبة من الإله، وإنه سيكون موضع عنايتهما ومحبتهما بصرف النظر عن كونه ضريرا أم بصيرا.

ورأت وانغ ياو تشين فى تلك الليلة حلما، رأت الكثير من المساكن البنفسجية متراصة على جانبى الطريق تغمرها أشعة الشمس الخضراء، حتى شعر الجميع بروح الربيع وقد ملأت الكون بجمالها الفتان، ورأت أنها وزوجها يسيران وسط الطريق، يأخذان حامل الصحف الأحمر والكثير من الصحف والمجلات، وكانت جميع صحف ومجلات ذلك اليوم تتحدث عن طفلهما.

لقد كان حلم الضريرة وانغ ياو تشين حلما مليئا بالنور والأمل فى غد مشرق.

المؤلفات فى سطور:

١ ـ جانغ جييه

روائية وقاصة وكاتبة مقالة مشهورة، ولدت عام ١٩٢٧، وتعيش الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية. أبدعت عددا كبيرا من الأعمال الروائية والقصصية والمقالة وأدب الرحلات. فهى واحدة من أهم الكاتبات الصينيات فى تاريخ الأدب الصينى المعاصر، والتى كتبت القصة والرواية والمقالة، وتخرجت عام ١٩٦٠ فى قسم التخطيط والإحصاء بجامعة الشعب الصينى فى بكين، ونشرت باكورة أعمالها القصصية قصة "طفل الغابة" فى عام ١٩٧٨، والتى جذبت إليها الأنظار آنذاك، حتى حازت هذه القصة على جائزة أفضل عمل قصصى على مستوى الصين لذلك العام، لتتضم الكاتبة جانغ جييه فى العام التالى إلى اتحاد الكتّاب الصينيين، وتبدأ مرحلة جديدة مهمة من الإبداع الثرى، والذى بدأته بقصتها المعروفة "الحب، عاطفة لا تنسى". والتى اهتمت بمناقشة موضوع من أهم

الموضوعات التى كانت تشغل المجتمع الصينى فى تلك الفترة، وهو موضوع العلاقة بين الحب والزواج، وأثر ذلك على الفرد والمجتمع. ثم توالت أعمالها الروائية التى رسخت مكانتها فى تاريخ الأدب الصينى المعاصر،و التى يأتى من أهمها "الأجنحة الثقيلة"، والتى حازت على جائزة ماودون الأدبية (وهى أعلى جائزة أدبية فى الصين، وتعد نوبل الأدب الصينى) فى دورتها الثانية، وتعد هذه الرواية أول رواية صينية تتناول موضوع الإصلاح الصناعى والاقتصادى فى الصين فى تاريخ الأدب الصينى فى الفترة الجديدة (١٩٧٨ ـ حتى الآن)، ورواية "شمس واحدة"، والرواية القصيرة "الزمرد" (والتى حازت على جائزة أفضل عمل فى مجال الرواية القصيرة على مستوى الصين ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤)، ورواية "حرف لا" التى عادت بها الكتابة للحديث عن موضوع الزواج الذى كانت قد تناولته فى قصتها المعروفة "الحب، عاطفة لا تنسى". وقد ترجمت أعمال الكاتبة جانغ جييه إلى أكثر من عشر لغات أجنبية.

٢ ـ جانغ كانغ كانغ

روائية وقاصة صينية وكاتبة أدب أطفال، تنتمى لتيار أدب المثقفين الشباب الذى ظهر فى عام ١٩٧٨عقب انتهاء "الثورة الثقافية الكبرى"(١٩٦٦ ـ ١٩٦٧). ولدت فى عام ١٩٥٠ بمدينة خانغ جوو بجنوب الصين، وتشغل منذ عام ٢٠٠٦ نائب رئيس اتحاد كتاب الصين. وحصلت أعمالها على العديد من الجوائز الأدبية

داخل الصين، منها: جائزة أفضل قصة قصيرة على مستوى الصين، وجائزة أفضل قصة طويلة على مستوى الصين، وجائزة لوشيون الأدبية، وجائزة الإبداع فى أدب المرأة الصينية وغيرها من الجوائز الأدبية داخل الصين. وترجمت بعض من أعمالها إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية واليابانية والروسية.

٣ - تييه نينغ

روائية وقاصة صينية مشهورة، ولدت عام ١٩٥٧ بالعاصمة الصينية بكين، ثم عادت وعمرها أربعة أعوام إلى مسقط رأس أبيها فى مدينة باو دينغ بمقاطعة خه بيى شمال الصين، وبدأت الكتابة فى مرحلة الدراسة الثانوية ونشرت أول عمل لها بعنوان "الفأس الطائرة" عام ١٩٧٤ بمجلة "باو دينغ الأدبية"، وفى عام ١٩٨٢ نشرت مجلة "أدب الشباب" ببكين القصة القصيرة "شيانغ شويه" للكاتبة تييه نينغ، والتى أحدثت فور صدورها ضجة كبيرة على الساحة الأدبية الصينية، وحصلت على أفضل قصة قصيرة على مستوى الصين لعام ١٩٨٢. ثم توالت بعد ذلك إبداعات الكاتبة تييه نينغ التى شملت أعمالا فى القصة القصيرة والرواية والنثر، وفضلا عن قصتها الشهيرة "شيانغ شويه"، من أهم أعمالها فى مجال القصة أيضا "قميص بلا عراو" و"موضوع شهر يونيه"، الحائزتان على أفضل قصة قصيرة ونوفيلا على مستوى الصين، ومن أهم أعمالها فى مجال الرواية روايات "باب الورد البلدى"، و"أكوام القطن"،

و"أكوام القمح"، و"مدينة بلا أمطار" وغيرها من الأعمال القصصية والروائية. وتشغل منذ ٢٠٠٦ ـ بعد رحيل شيخ الأدب الصينى باجين ـ منصب رئيس اتحاد كتّاب الصين ورئيس اتحاد كتّاب مقاطعة خه بيى شمال الصين، وهى بذلك أول كاتبة صينية ترأس منصب رئيس اتحاد كتّاب الصين منذ تأسيسه فى بكين عام ١٩٤٧.

وقد اختلف الكثير من نقاد الأدب الصينى فى تصنيف إبداعاتها الثرية فمنهم من يصنف كتاباتها ضمن كتابات الشباب المثقفين مع جانغ كانغ كانغ، ووانغ آن إى، وخان شاو قونغ وغيرهم، ومنهم من يصف إبداعاتها بأنها تزخر بالجمال الفنى الذى يندر وجوده فى أعمال كتّاب وكاتبات كثيرين على الساحة الأدبية الصينية، وهناك الكثير من النقاد يضعونها مع الكاتبة المعاصرة صاحبة الإنتاج الأدبى الغزير وانغ آن إى باعتبارهن كاتبات معاصرات يغلب على إبداعهن التنوع فى الشكل والأسلوب والمادة الأدبية، تماشيا مع ظروف العصر والتطور السريع الذى يشهده المجتمع الصينى المعاصر.

وتعتبر من أوائل الكاتبات الصينيات المعاصرات وأهمهم اللاتى اهتمت إبداعاتهن برصد جوانب خاصة فى شخصية المرأة الصينية؛ حيث ركزت كثير من أعمال تييه نينغ على التعبير عن العالم الداخلى للأنثى والوصف الدقيق لتفاصيل حياة المرأة

الصينية المعاصرة، وهى دائما ما تراعى فى كتاباتها أن تكون من منظور وسطى لا يعبر عن وجهة نظر نسوية أو رجولية خالصة.

٤ ـ تشه تزه جيان

روائية وقاصة صينية معروفة، وأحد أهم الأصوات الأنثوية على الساحة الأدبية الصينية المعاصرة، وولدت عام ١٩٦٤بمقاطعة خا إر بين بشمال شرق الصين، وتخرجت عام ١٩٨٤بكلية آن لينغ للمعلمات بمقاطعة خا إر بين، والتحقت عام ١٩٨٧بمعهد الدراسات العليا الذى يشرف عليه جامعة المعلمين ببكين ومعهد أدب لوشيون، وتخرجت منه عام ١٩٩٠ لتلتحق فور تخرجها للعمل باتحاد كتّاب مقاطعة خا إر بين حتى الآن، بدأت تشه تزه جيان مشوارها الإبداعى عام ١٩٨٣، وتنوعت إبداعاتها الأدبية ما بين القصة القصيرة والرواية والنثر. صدر لها "تحت الأشجار" و"حكايات قرية بى جى". وقد حصلت أعمال تشه تزه جيان على عدة جوائز وأوسمة صينية وعالمية، أهمها جائزة أدب لوشيون الصينية، والتى حصلت عليها الكاتبة فى دوراتها الأولى والثانية والرابعة، وعلى جائزة "أفضل رواية قصيرة على مستوى الصين (٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٦)"، وعلى جائزة الكاتبة الصينية بينغ شين فى مجال النثر. ثم توجت إبداعاتها بحصولها على جائزة مادون الأدبية (التى تعد نوبل الأدب الصينى) فى دورتها السابعة عام ٢٠٠٨عن روايتها ذائعة الصيت "الضفة الجنوبية لنهر أرجون".

المترجم فى سطور:

د. حسانين فهمى حسين

مدرس اللغة الصينية وآدابها بكلية الألسن ـ جامعة عين شمس.

حصل على دكتوراه اللغة الصينية عام ٢٠٠٨ من جامعة اللغات ببكين.

من مؤلفاته:

١ ـ معجم المفردات والمصطلحات السياحية عربى صينى ـ صينى عربى القاهرة ٢٠٠٩.

٢ ـ معجم التعبيرات والمصطلحات التجارية والصناعية عربى صينى ـ صينى عربى القاهرة ٢٠٠٩.

٣ ـ دليل المحادثة باللغة الصينية المجال التجارى ـ القاهرة ٢٠١١.

شارك فى تأليف كتب باللغة الصينية، منها:

١ ـ "دراسات فى قضايا عربية معاصرة"، دار نشر الشعب ببكين ٢٠٠٦.

٢ ـ "نجيب محفوظ حب وعطاء بلا حدود"، دار نشر نينغ شيا الصين ٢٠٠٨.

٣ ـ "حكايتى مع الصين"، دار نشر القارات الخمس ببكين عام ٢٠٠٨.

من ترجماته:

١ ـ "المروحة فى الثقافة الصينية"إصدار الدار العربية للعلوم ببيروت ٢٠٠٩ .

٢ ـ "ثقافة اليشم" إصدار الدار العربية للعلوم ٢٠٠٩.

٣ ـ "قصص من تاريخ الصين القديم" الدار العربية للعلوم ٢٠١٠ .

٤ ـ"دراسات فى المسرح الصينى خلال القرن العشرين ـ الجزء الأول" وزراة الثقافة ـ مهرجان المسرح التجريبى ـ ٢٠١٠.

٥ ـ "دراسات فى المسرح الصينى خلال القرن العشرين ـ الجزء الثانى" وزراة الثقافة ـ مهرجان المسرح التجريبى٢٠١١ .

٦ ـ "المسرح التجريبى الصينى" وزارة الثقافة ـ مهرجان المسرح التجريبى ٢٠١١.

٧ ـ مجموعة من الأفلام الوثائقية والتاريخية لوزارة الثقافة الصينية.

٨ ـ عدد من الكتب التعليمية لوزارة التعليم الصينية.

٩ ـ الذرة الرفيعة الحمراء، تأليف مويان، المركز القومى للترجمة ٢٠١٣.

قام بأعمال الترجمة الفورية والتتبعية والتحريرية فى العديد من المؤتمرات والمحافل الدولية والإقليمية داخل مصر والصين.

كتب عددا من البحوث والمقالات المنشورة فى مصر والصين حول الأدب والثقافة المصرية والصينية باللغتين العربية والصينية.

المسابقات الدولية فى مجال اللغة الصينية:

ـ حصل على جائزة التفوق فى الدورة الأولى لمسابقة اللغة الصينية للطلاب الأجانب المقيمين بالصين عام ٢٠٠٨.

ـ حصل على لقب الطالب المثالى بجامعة اللغات ببكين عام ٢٠٠٨.

التصحيح اللغوى: نهلة فيصل

الإشراف الفنى: حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب